BEST SELLERS

أروع القصص البوليسية

POLICE ACTION STORIES



وادي الرعب



وادي الرعب

رمزية الشياطي

دار الراتب الجامعية
DAR EL-RATEB

سوفنير بوك هاوس

بسم الله الرحمن الرحيم

الترقيم الدولي: ISBN: 9953-30-070-4

التعريب : رمزية الشياطي . ادوار جميل أبونصر

التحرير : رانيا حمدي . ناتالي كوبي

تصحيح : سمير الحديدي

التصميم والاشراف الفني

سامو برس غروب

الاشراف العام ومدير الانتاج

راتب أحمد قبيعه

الطّبعة الأولى 1424 هـ .2003ـ 2004م

دار الراتب الجامعية
DAR EL-RATEB

Tel : 00961 1 853 993
Tel: 00961 3 818664
Fax: 00961 1 853 895
P.O.Box: 19-5229 Beirut - Lebanon
E-mail: el-rateb@cyberia.net.lb



BEST SELLERS

أروع القصص البوليسية

POLICE ACTION STORIES

وادي الرعب

تقديم

العقل البشري، بحر الأسرار هذا، مركز الغموض الذي يحيِّر أكبر العلماء والباحثين، تلافيفه الكثيرة الغريبة تخفي قدرات هائلة ومكونات ضخمة لم يتوصل العلم إلى فك كافة طلاسمها ورموزها بعد.

العقل البشري، خاصية الإنسان وهبة الله الأعظم يُخفي بداخله أبعاد ومجالات يقف المنطق والعلم أمامها بانبهار وذهول يغلف كل معجزة كل عبقرية. كل خاصية جديدة تظهرها الأيام وتميط اللثام عن كنهها تُثبت للمفكرين وللعالمين كنوز العقل المخبأة بين تلافيفه.

لهذا العقل الذكي، لهذه الهبة الإلهية العظمى، لبحر الأسرار هذا نوجِّه هذا الكتاب ليظل العقل حياً مفكراً محللاً ليصل بالنهاية بالبشر كل البشر إلى شاطئ الكمال الإنساني، في حلّ الالغاز وتحليل الجريمة، والوصول الى الهدف من خلال الخيوط المعقدة للقصة.

مقتبسة عن أروع القصص البوليسية لشارلوك هولمز والفرد هتشكوك نقدمها للقارئ الكريم آملين اضافة وإغناء المكتبة العربية بكل جديد ومفيد.

الجزء الأول

مأساة بيرلستون

الفصل الأول

التحذير

«أعتقد أنه ـ» قلت.

«سأفعل ذلك» قاطعني أنطونيو بنفاذ صبر. أعترف أنني أحد أكثر الآدميين معاناة، لكني انزعجت من مقاطعته الساخرة لحديثي «حقا، أنطونيو» قلت بحدة: «أنت لا تطاق بعض الأحيان».

كان غارقاً تماماً بأفكاره ليجيب على تعنيفي له. وضع رأسه بين يديه ومرفقيه متكأن على طاولة الفطور الذي لم يمسه بعد وحدق بورقة كان قد سحبها من مغلفها. ثم أمسك بالمغلف نفسه وقربه من الضوء وأخذ يدرس جهتيه بعناية ودقة فائقه.

«إنه خط يد بورغ» قال بتفكير: «أنا شبه واثق أنه خط يد بورغ، مع إنه سبق لي ورأيت خط يده مرتين فقط في السابق، حرف «الألف» الذي يكتبه مميز جيداً. لكن إذا كانت الرسالة من بورغ فإنها دون شك بالغة الأهمية بدرجة قصوى».

كان يتكلم مع نفسه وليس معي، لكن انزعاجي منه تبخر بسبب أهمية مدلولات كلماته.

«من هو بورغ هذا إذن؟» سألته.

«بورغ، يا كارلوس، إسم. . . ، إنه مجرد علامة فارقة لكن خلف هذه العلامة تقع شخصية مراوغة داهية وواسعة الحيلة. بالرسالة السابقة أعلمني بصراحة أن بورغ هو ليس إسمه الحقيقي وتحداني أن أتمكن من تتبع أثره وسط الملايين الساكنين في هذه العاصمة الكبيرة. بورغ مهم ليس لِذاته، بل للرجل البالغ أهمية الذي يرافقه. تخيل صورة سفينة الأسماك والقرش، الثعلب والأسد ـ أي شيء غير مهم مترافق مع شيء هائل. ليس فقط هائل. كارلوس، بل شرير وفاسد ـ لأقصى درجات الشر والفساد. هذا هو تصوري عنه. لقد سمعتني أتحدث عن البروفسور مورغان؟».

«العالم المجرم المشهور، المعروف وسط اللصوص كما ـ».

«يا لخجلي كارلوس» تمتم صديقي بصوت مستنكر.

«كنت على وشك القول: «كما هو غير معروف وسط الجمهور العادي:».

«لمسة ـ لمسة مميزة» صرخ صديقي: «أنت تطور مسحة من المزاج الماكر. كارلوس، وهذا هو الشيء الذي يجب أن أتعلم أن أحرس نفسي منه. لكن بنعتك مورغان بالمجرم فهذا يعتبر تشهيراً وطعناً بنظر القانون. لكن هنا يكمن سر الروعة والحيرة. أعظم مخطط في العالم، المخطط لكل عمل شرير، العقل المفكر للعالم السفلي ـ العقل الذي كان ليصنع أو يلطخ مصير البشرية. هذا هو الرجل الذي أتحدث عنه. لكنه بعيد جداً عن الشك والريبة ـ منيع ضد النقد ـ إنه محترم جداً وسجله ناصع البياض لدرجة أنه يستطيع وبسهولة إذا سمع كلماتك المهينة هذه أن يجر جرك إلى المحاكم ويحصل على الحكم بإدانتك لجرحك لشرفه. أليس هو المؤلف الكبير لكتاب «ديناميكية الكون» ـ وهو كتاب يتكلم عن أعمق وأهم نظريات الرياضيات المطبقة على الكواكب والنجوم بطريقة لا يستطيع أي عالم بالكون كله أن يبزه بها؟ هل هذا رجل يستحق الشتم والإهانة؟ طبيب مجنون يحقر

الشيفرة لك. تمكنت من إخفاء المغلف. فلو رآه لكانت بذلك نهايتي. لكني قرأت الشك داخل عينيه. أرجوك إحرق رسالة الشيفرة. التي ستكون الآن بلا فائدة لك.

بورغ»

جلس صديقي لبعض الوقت وهو يقلب هذه الرسالة بين أصابعه، مقطبا ومحدقا بنار المدفأة.

«بعد كل شيء» قال أخيراً: «لربما لم يكن بالأمر أية خطورة أصلاً. لربما هو مجرد ضميره المذنب. بمعرفته لنفسه أنه خائن فقد قرأ الإتهام بعيون الأخر».

«الآخر، على ما أظن، هو البروفسور مورغان؟».

«بالتأكيد. حين يتكلم أي أحد من تلك الجماعة عنه «هو». فستعرف فوراً من يقصدون بهذا الضمير. هناك «هو» مسيطر واحد عليهم جميعاً».

«لكن ماذا بامكان البروفسور أن يفعل؟».

همم! هذا سؤال ضخم. حين يكون أحد أهم العقول العبقرية في أوروبا كلها ضدك وتكون إلى جانبه كل قوى الشر والظلام، فهناك احتمالات لا تحصى لما باستطاعته أن يفعل بك. على كل حال. من الواضح أن صديقنا بورغ مذعور جداً. راقب ببساطة الإختلاف في خطه بين الرسالة التي كتبها بعد شعوره بارتياب «الهو» به وبين خط العنوان الذي كتبه قبل وصول «هو» إليه. الأول يكاد لا يقرأ فيما الثاني واضح وثابت».

«لماذا أكتب من الأصل هذه الرسالة؟ كان بامكانه تناسي الأمر».

«لكنه يخشى أن أقوم بتحقيقاتي حوله بهذه القضية، وبالتالي إمكانية تسببي بالمشاكل له».

«بدون شك» قلت: «بالطبع -» تناولت ورقة الشيفرة وأخذت أحدق بها ثم تابعت: «من الجنون التفكير أن سراً بالغ الأهمية يقبع هنا بقصاصة الورق هذه، وأنه لا تستطيع أي قوة بشرية اكتشاف سر هذا».

«أتساءل» قال وهو يسترخي على كرسيه ويحدق بالسقف: «لربما هناك نقاط قد غابت عن ذكائك. لنفكر بالقضية بعقلانية ومنطق صافيين مرجع الشيفرة يعود إلى كتاب. هذه نقطة إنطلاقنا».

«نقطة غامضة جداً في الواقع».

«لنرى، إذن، إذا استطعنا تحديد هذه النقطة أكثر. كلما ركزت عقلي عليها كلما بدت أقل غموضاً. ماهي العلامات التي نملكها فيما يتعلق بهذا الكتاب؟».

«ولا أية علامة».

«لا بأس. لابأس. ليس المسألة سيئة بهذه الدرجة. الرسالة تبدأ بالرقم 534 بالخط الكبير، لا؟ نستطيع الإستنتاج من هذا أن الرقم 534 هو رقم الصفحة المقصودة بالشيفرة. إذن فكتابنا دون شك كتاباً ضخماً، وهو شيء مرتبط بالإستنتاج الأول. ما هي العلامات الأخرى التي نملكها حول هذا الكتاب الضخم؟ الإشارة الثانية هي ف؟. ما الذي تفهمه من هذا كارلوس؟».

«الفصل الثاني. دون شك».

«بالكاد ذلك، كارلوس. ستوافقني. كارلوس دون شك أنه ما دام قد أعطانا رقم الصفحة فلا يوجد أي داعي ليعطي رقم الفصل وأيضا إذا كان الرقم 534 يحدد الصفحة الأولى في الفصل الثاني ألا يكون برأيك الفصل الأول طويلاً بدرجة غير منطقية وغير معقولة؟».

«رقم عامود إذن» صرخت.

«رائع كارلوس . أنت متألق هذا الصباح. إذا لم يكن رقم عامود داخل الصفحة فسأكون مخدوعا. والآن كما ترى. فقد أصبحنا أمام كتاب ضخم كبير، مطبوع بعامودين في كل صفحة، وكل عامود طويل بطريقة واضحة ربماأن إحدى الكلمات داخل العامود المقصود تحمل الرقم 293. هل توصلنا إلى الحدود التي يستطيع العقل أن يهبنا إياها؟».

«أخشى أننا قد فعلنا».

«أنت بالطبع تقلل من قَدْر نفسك، علامة إضافية، ياعزيزي كارلوس، أعطني موجة عقلية إضافية. لو كان الكتاب. كتاباً غير عادياً لكان أرسله لي. لكنه قد قصد أن يقدم لي المفتاح برسالة الشيفرة ذاتها. هذا ما يقول برسالته. هذا يعني أن الكتاب يسهل الوصول إليه إذا ما استعملت بعض التحليل المنطقي الذكي. هو يملك هذا الكتاب. وقد تصور إنني بدوري أملكه. باختصار كارلوس. إنه كتاب شائع الإستعمال جداً».

«ما تقوله يبدو معقولا جداً».

«إذن فقد حددنا مجال بحثنا بكتاب كبير، مطبوع بعامودين في كل صفحة، وشائع الإستعمال».

«الإنجيل» صرخت بانتصار.

«جيد، كارلوس، جيد! لكن ليس جيداً كفاية. حتى ولو تقبلت المديح لنفسي. فأنا لن أكذب بالقول أنه من الممكن أو حتى المحتمل وجود كتابا مقدساً مع أي شخص قريب من مورغان. وأيضا هناك طبعات مختلفة وعديده للإنجيل ولهذا فقد لا تتطابق الصفحة بالواحد بنفس رقم الصفحة بالآخر. هذا بالطبع كتاب ثابت. فهو يعرف بالتأكيد أن الصفحة رقم 534 عنده ستكون بنفس الرقم بالكتاب عندي أو بأي كتاب آخر من نفس النوع».

«لكن القليل من الكتب تتناسب مع هذا».

«بالضبط. هنا يكمن خلاصنا. بحثنا قد تحدد بالكتب الكبيرة جداً والتي من المفترض لأي شخص أن يحتويها أو يمتلكها».

«كتب برادشو؟».

«هناك صعوبات كارلوس بهذه الكتب. الكلمات محددة ودقيقة. اختيار الكلمات لن يساعدك على تأليف رسالة من عامود واحد. سنحذف كتب «برادشو». القاموس، كما أخشى، محذوف أيضاً لنفس الأسباب السابقة. فما الذي يتبقى عندنا إذن؟».

«الروزنامات».

«ممتاز كارلوس! لقد أصبت الهدف هذه المرة. لنركز على «روزنامة وايت». إنها شائعة الإستعمال. فيها العدد المطلوب من الصفحات. إنها مكتوبة بعامودين لكل صفحة. مع إنها مُقِلّة بتعابيرها في البداية إلا أنها تصبح غنية جداً بالمفردات في صفحاتها الأخيرة». تناول الرزنامة من على مكتبه: «ها هي الصفحة رقم 534 وهذا هو العامود الثاني والموضوع هنا يتكلم عن تجارة ومصادر الدَخل في الهند البريطانية. دوّن الكلمات كارلوس. رقم 13 هي كلمة «مهراجا» أخشى أنها ليست مقدمة جذابة. التالية «حكومة»، التي تعني شيئا على الأقل رغم أنها غير مهمة لنا وللبروفسور مورغان. الآن لنحاول مجدداً. ما الذي تعنيه حكومة المهراجا؟ يالأسف! الكلمة الثالثة «شعر الخنزير». لقد قضى علينا. كارلوس! لقد انتهت».

كان يتكلم بخفة لكن ملامحه كانت تعكس خيبة أمله وانزعاجه. جلست بعجز وتعاسة وحدقت بالنار. صمت طويل انقطع بشهقة مفاجئة من أنطونيو الذي أسرع نحو الخزانة وعاد بروزنامة صفراء ضخمة بين يديه.

«لقد دفعنا الثمن كارلوس بكوننا عصريين جداً». صرخ: «نحن نسبق

وقتنا، وقد عانينا من العقوبة المناسبة. بما أننا الآن في السابع فقط من كانون الثاني فقد اعتقدنا أن المقصود بالرسالة روزنامة السنة الجديدة هذه. لكن من المنطقي أكثر أن بورغ أخذ رسالته من روزنامة السنة الماضية. لا شك أنه كان سيطلعنا على ذلك أرسل رسالة الشرح. والآن لنرى ما الذي تخبئه لنا الصفحة رقم 534. الرقم 13 هو «هناك». كلمة واعدة أكثر من السابقة. الكلمة التالية هي «خطر» ـ هناك خطر. ها! ها هذا مهم. دوّن عندك كارلوس: «هناك خطر ـ قد ـ يأتي ـ بسرعة ـ فائقة ـ جداً. ثم عندنا كلمة «دوغلاس» ثم ـ بلدة ـ غنية ـ الآن ـ في ـ بيرلستون ـ منزل ـ بيرلستون ـ الثقة ـ سيقع ـ قريباً». والآن كارلوس، ما رأيك بالتفكير المنطقي ونتائجه المثمرة؟».

كنت أحدق بالرسالة الغريبة التي تشكلت على الورقة بين يدي.

«يا لها من طريقة غريبة ومبعثرة ليصل إلى ما يقصده» قلت.

«على العكس لقد قام بعمل جيد جداً» قال صديقي: «حين تفتش في عامود واحد عن كلمات تعبر بها عن مقصدك فبالكاد ستتوقع أن تجد كل التعابير التي تريدها. ستكون مجبراً على ترك بعض الأمور لذكاء وتحليل من ترسل إليه رسالتك. الرسالة واضحة تماماً. هناك شر ومكيدة تكاد أن تبطق على رجل يدعى دوغلاس، والذي لا نعرف من يكون، وهو يسكن في العنوان المذكور أعلاه، وهو رجل غني ومحترم. هو أي بورغ واثق ـ إستعمل كلمة «ثقة» لأنه لم يجد غيرها وهي أقرب ما تكون للصفة واثق ـ أن الأمر خطير وسيقع قريباً. هذه هي نتيجة عملنا الذي كان تحليلياً بحتاً».

أخذ صديقي يقهقه بفرح للنجاح بفك طلاسم الشيفرة وكان لا يزال يضحك حين قرع الباب ودخل علينا المفتش المحقق ماكدونالد من الاسكوتلانديارد. كان طويل القامة، نحيل الجسد، بعيون لامعة تظهر الذكاء المتوقد داخله. كان رجلاً صموتاً، جاداً بطبيعة عملية ولهجة جنوبية

واضحة. لقد سبق لأنطونيو أن ساعده بقضيتين سابقتين وكانت كالعادة مكافأته هي سروره الذاتي بالتوصل إلى حل العقدة. لهذا السبب إحترام وتقدير ماكدونالد لصديقي كانا صادقين وكان يعبر عن ذلك باستشارته لأنطونيو علنا وإظهاره للجميع أنه يستعين ويعتمد على مساعدة أنطونيو له ببعض القضايا الغامضة. ذكاء ماكدونالد وتفانيه بعمله أعلماه أنه لا يوجد أي حرج بالبحث عن المساعدة عند أحد الرجال الأكثر عبقرية في أوروبا كلها والفريد بأساليبه وطرقه المبتكرة العبقرية للتوصل للحل في مجال التحري والتحقيق.

إبتسم له أنطونيو بترحيب وقال: «آه، أنت طائر مبكر سيد ماكدونالد، أتمنى أن تعثر على دودتك بسرعة. أخشى أن هذا يعني حصول جريمة أو ما شابه».

«لو قلت» آمل بدلاً من كلمة «أخشى» لكنت أقرب للحقيقة، أنا أفكر سيد بونتي» أجاب المفتش بابتسامة: «حسن، لربما رشفة صغيرة قد تبعد برودة الصباح. كلا. شكرا، أنا لا أدخن، شكراً لك. يجب أن أنطلق على الفور، لأن ساعات القضية المبكرة ثمينة للغاية كما تعرف وبوضوح. لكن ـ لكن ـ» توقف المفتش فجأة عن الكلام وكان يحدق بذهول تام بالورقة التي دونت عليها رسالة الشيفرة.

«دوغلاس!» تمتم بدهشة: «بيرلستون! ما هذا سيد بونتي؟ يا رجل، هذا سحر وشعوذة! كيف بحق كل ما هو مقدس حصلت على هاذين الإسمين؟».

«إنها شيفرة كنت وصديقي الطبيب كارلوس نحلها للتو. لكن لماذا ـ ما هي المشكلة بهاذين الإسمين؟».

نظر المفتش من أحدنا إلى الآخر بذهول مندهش.

«المشكلة هي» قال: «أن السيد دوغلاس، المقيم في منزل بيرلستون قد وُجد مقتولا بعنف وقسوة هذا الصباح بالذات».

الفصل الثاني

السيد أنطونيو بونتي يحاضر

كانت هذه إحدى اللحظات الدرامية التي خُلق صديقي من أجلها. سيكون من الكذب القول أنه قد صُدم أو اندهش لما سمعه من فم المفتش. ولم يكن من أثر لديه للرعب الذي شعرت به بسماعي تلك الكلمات. لكن بطبيعته العقلانية البعيدة عن العواطف والمشاعر رأيت ملامحه تظهر هدوءه واستمتاعه كانه كيميائي يرى الكريستال يقع مكانه من فوق محلوله المشبع.

«أمر استثنائي» قال: «لافت للنظر».

«لا تبدو عليك الدهشة».

«مهتم سيد ماكدونالد ولكن ليس مندهشا. ولماذا أندهش؟ لقد استعملت معلومة من أحد الأشخاص تقول أن أحدهم في خطر. وبظرف ساعة أعرف أن الخطر قد تحقق وأن الشخص المقصود قد قتل. أنا مهتم لكن. كما تلاحظ، ليس مندهشاً».

بجمل قليلة أوضح للمفتش مسألة الرسالة والشيفرة. جلس ماكدونالد ويده على ذقنه وحاجبيه الكثيفين ملتقين بتقطيبة.

«كنت في طريقي إلى بيرلستون الآن» قال المفتش: «وقد أتيت لأسألك

إن كنت ترغب بمرافقتي ـ أنت وصديقك الطبيب. لكن مما تقوله لربما سنقوم بعمل أفضل هنا في لندن».

«أعتقد ذلك بدوري». وافقه أنطونيو.

«إذن سيكون علينا فقط وضع اليد على هذا الرجل والبقية ستأتي».

«بدون شك سيد ماك. لكن كيف تقترح أن نلقي القبض على المدعو بورغ؟».

قلب المفتش الرسالة بين يديه وكذلك المغلف.

«مرسلة من كامبرويل ـ هذا لا يساعدنا كثيراً. الإسم كما تقول، غير حقيقي. لا يوجد الكثير لنعتمد عليه بالطبع. ألم تقل أنك قد أرسلت له المال رداً على مساعدته؟».

«مرتين؟».

«كيف؟».

«بارسالي المبلغ إلى صندوق بريد كامبرويل العام».

«ألم تزعج نفسك بالتحري حول من يستلم المال؟».

«لا».

بـدا المفتش مندهشاً ومصدوماً.

«ولم لا؟».

«لأنني لا أخلف وعداً مطلقا. لقد وعدته بعدم ملاحقته منذ الرسالة الأولى التي أرسلها».

«تعتقد أن هناك شخص ما خلفه؟».

«أنا لا أعتقد أنا متأكد».

«ذلك البروفسور الذي سمعتك تتحدث عنه؟».

«بالضبط».

إبتسم المفتش وغمز بعينه باتجاهي.

«لن أخفي عنك سيد بونتي أننا نعتقد في الدائرة أنك متحامل دائم على البروفسور هذا. لقد تحققت عن بعض الأمور بقضية هذا البروفسور بالذات. يبدو أنه رجل محترم جداً، مثقف جداً وموهوب».

«أنا مسرور أنك توصلت لمعرفة أنه موهوب».

«يا رجل لا تستطيع ألا أن تدرك ذلك. بعد أن سمعت وجهة نظرك لم أستطيع إلا أن أتحرى عنه. لقد تحدثت معه حول الخسوف ـ كيف فتحنا هذا الموضوع لا أعرف ـ لكنه أحضر مصباحاً وكرة وأوضح لي الأمر بلحظات. لقد أعارني كتاباً، لكن لا أنكر بالإعتراف أنه كان فوق مستوى فهمي، مع أن تعليمي كان ممتازاً. كان ليصبح من أحد أكثر رجال الدين شهرة بشعره الرمادي بوجهه النحيل وذكاؤه الخارق حين وضع يده على كتفي وأنا على وشك المغادرة كان الأمر كأنه بركة والد قبل عودتك إلى العالم البارد القاسي». قهقه أنطونيو وفرك يديه.

«عظيم» قال: «عظيم! أخبرني ياصديقي ماكدونالد. هذه المقابلة اللطيفة والمؤثرة كانت في مكتب البروفسور؟».

«هذا صحيح».

«إنها غرفة جميلة، لا؟».

«جميلة جداً ـ ومرتبة جدا بالفعل سيد بونتي».

«جلست أمام طاولة المكتب خاصته؟».

«بالضبط».

«عيونك بالشمس ووجهه بالظل؟».

«حسنا، كان الوقت مساءاً، لكني أظن أن ضوء المصباح كان بوجهي».

«يجب أن يكون الوضع ذلك. هل لاحظت وجود لوحة على الجدار فوق رأس البروفسور؟».

«أنا لا أغفل عن أي شيء، سيد بونتي. لربما قد تعلمت ذلك منك. أجل كانت لوحة لإمرأة شابه ورأسها بين يديها وتنظر إليك نظره جانبية».

«هذه اللوحة كانت لجان كروز».

بـدا الإهتمـام على وجه المفتش

تابع أنطونيو قائلاً: «قد تعتقد أننا قد ابتعدنا عن قصتنا الأساسية لكن ما نتحدث به هو لب الموضوع، لب قضية لغز بيرلستون».

إبتسم المفتش قليلاً ونظر نحوي بتوسل.

«أفكارك سريعة جداً بالنسبة لي، سيد بونتي. لقد تركت حلقة أو حلقتين ولا أستطيع تخطي هذه الفجوة. ماذا بحق السماء قد تكون صلة الوصل بين الرسام الميت منذ مدة صاحب هذه اللوحة وبين مسألة بيرلستون؟».

«كل المعلومات تفيد التحري» علّق صديقي: «حتى الواقعة التافهة التي حدثت عام 1865 والتي هي وصول سعر لوحة لكروز عنوانها «سيدة الحزن»، إلى مليون ومئة ألف فرنك في مزاد بورتاليز العلني والتي قد تعطيك الإنعكاس المطلوب».

بالفعل لقد بدأ الإستمتاع على وجه المفتش.

«أستطيع أن أذكرك» تابع صديقي: «أن معاش البروفسور ومن مصادر موثوقة لا يتعدى السبع مائة جنيه في السنة».

«إذن كيف استطاع أن يشتري ـ».

«بالضبط. كيف استطاع؟».

«آه، هذا مشوق» قال المفتش بتفكير: «تابع حديثك سيد بونتي أنا مستمتع جداً به، تابع من فضلك».

إبتسم رداً على الإطراء وسأل: «وماذا حول قضية بيرلستون؟».

أجابه المفتش: «لا يزال أمامنا الوقت الكافي. عربتي في الأسفل ولن

نستغرق أكثر من ثلث ساعة للوصول إلى فيكتوريا، لكن بشأن هذه اللوحة ـ أعتقد إنك قد أخبرتني مرَّة. أنه لم يسبق لك والتقيت بالبروفسور مورغان».

«كلا، لم أفعل».

«إذن كيف تعرف تفاصيل غرفة مكتبه؟».

«آه، هذه مسألة مختلفة تماماً. لقد ذهبت إلى منزله ثلاث مرات، مرتين أخذت أنتظره وغادرت قبل أن يصل. ومرة ـ حسنا، لا يفترض بي أن أعترف بهذا أمام مفتش شرطة، لكني استغليت وقت الإنتظار. وفتشت بأوراقة واكتشفت أشياء مهولة».

«وجدت شيئاً واعداً؟».

«بالطبع لا شيء. هذا ما أذهلني. على كل حال، لقد أخذت فكرة عن الموضوع. فقد أظهر ما رأيت أنه رجل واسع الثراء. كيف حصل على كل هذا المال؟ إنه غير متزوج. شقيقه الأصغر ناظر محطة في غرب إنكلترا يكسب سبع مائة جنيه في السنة. ويملك لوحة كروز».

«حسن؟».

«بالتأكيد النتيجة معروفة».

«تقصد أن له مدخولاً ضخماً وإنه يحصل عليه من مصادر غير قانونية؟».

«بالضبط. بالطبع عندي أسباب أخرى تجعلني أعتقد ذلك ـ عشرات الخيوط التي تؤدي بغموض إلى مركز الشبكة العنكبوتية حيث يتبختر المخلوق السام لقد ذكرت مسألة اللوحة فقط حتى أوضح لك الأمر».

«لا بأس. سيد بونتي أعترف أن ما تقوله مثير للإهتمام. أنه أكثر من مثير للإهتمام ـ إنه رائع. لكن لنوضح الأمور أكثر إذا سمحت. هل المسألة مسألة تزوير، أو تبييض عملة، أو سرقة؟ من أين يأتيه المال؟».

«هل سبق وقرأت لجوناثان وايلد؟».

«الإسم ليس بغريب علي. إنه كاتب روائي، لا؟ لا موهبة عندي بالقراءة ـ أم إنه إسم تحري ما ورد برواية ما؟».

«جوناثان وايلد لا تحري ولا كاتب روائي. كان سيدا في عالم الإجرام وعاش بالقرن الماضي ـ عام 1750 أو ما يقاربه».

«إذن هو لا يفيدني. أنا رجل عملي واقعي».

«سيد ماك. أكثر شيئاً عمليا تقوم به هو سجن نفسك في غرفتك لثلاثة أشهر والقراءة لمدة 12 ساعة كل يوم عن سجل الجرائم السابقة في الأرض. كل شيء يدور بحلقات، حتى البروفسور مورغان. جوناثان وايلد كان القوة المخفية لكل مجرمي لندن، لهم كان يبيع عقله وخططه مقابل أخذ خمسين بالمئة كعمولة. العجلة القديمة دارت والآن تقوم الجديدة بنفس المهمة. لقد حصل هذا في الماضي وسيحصل مجدداً في المستقبل. سأخبرك شيء أو شيئين عن مورغان قد يثيران اهتمامك».

«أنا بشوق لسماعك».

«صدف وأن عرفت من هو الحلقة الأولى في سلسلته ـ بأولها هذا العقل المدبر البارع وبآخرها كل نشالي لندن ولصوصها ومرابيها ومجرميها بكل أنواع الجريمة. نائبه هو الكولونيل سيباستيان موران، والذي يتمتع مثل صاحبنا بالمركز المرموق المحترم والبعيد كل البعد عن دائرة الشك. ماذا تعتقد أنه يدفع له؟».

«أود سماع ذلك منك».

«ستة آلاف جنيه في السنة. هذا سعر الأدمغة، أترى ـ مبدأ العمل الأميركي. لقد عرفت ذلك بمحض الصدفة فقط. هذا يعطيك فكرة عن ما يجنيه مورغان وما يقوم به من أعمال. نقطة ثانية. لقد تقصدت ملاحقة شيكات مورغان لاحقاً ـ شيكات بريئة عادية يدفع بها مصاريف وفواتير منزله. الشيكات كانت لستة بنوك مختلفة. هل يترك هذا أي انطباع في عقلك؟».

«غريب بالتأكيد، لكن ما الذي تستنتجه من ذلك؟».

«إنه لا يريد أي أقاويل حول ثروته. لا يجب أن يعرف أي شخص بالثروة التي يمتلكها هو. لا شك عندي أنه يملك حسابات بعشرين مصرفاً وليس فقط ستة. حين يكون عندك سنة أو سنتين من الفراغ فسأنصحك بأن تدرس بهما البروفسور مورغان».

ظهر الإهتمام العميق على وجه المفتش لكلام أنطونيو لكنه عاد إلى القضية الأساسية التي زارنا من أجلها.

قال: «يستطيع الإنتظار الآن على كل حال. لقد أبعدتنا عن القضية الأساسية سيد بونتي بحديثك المثير. ما يهم تعليقك أن هناك صلة وصل بين البروفسور وبين جريمة بيرلستون. هذا ما حصلت عليه من التحذير من رجلك المسمى بورغ. هل نستطيع الآن وبالاعتماد على أسس واقعية التوصل لأكثر من ذلك؟».

«نستطيع أن نتصور دوافع هذه الجريمة. إنها كما سبق وقلت جريمة غامضة غير واضحة. والآن على افتراض أن مصدر الجريمة هو صاحبنا فقد يكون هناك دافعين مختلفين. أولاً، أقول لك أن مورغان يسيطر على أتباعه ورجاله بيد من حديد صلب. نظامه الصارم هائل. هناك عقاب واحد بقانونه، الموت. الآن نستطيع أن نفترض أن هذا الرجل القتيل ـ دوغلاس هذا الذي عرف مصيره المشؤوم أحد المقربين من البروفسور ـ قد خان بطريقة ما رئيسه. عقابه تلا غلطته وعرف الجميع ذلك».

«حسن، هذا أولاً. ماذا ثانياً؟».

«ثانيا لقد دُبر هذا الأمر بتخطيط من مورغان بقضية عمل ما. هل حدثت أية عملية سرقة حديثاً؟».

«لم أسمع بذلك بعد».

«إذا حدث فهذا سيلغي الإفتراض الأول ويثبت الإفتراض الثاني. قد

يكون مورغان قد فعل ذلك بدافع التخلص من معاون خائن أو أن يكون أحدهم قد دفع له بسخاء للتخلص من الرجل المذكور. قد يكون أمراً من الأمرين أو قد يكون ثالثاً يربط بينهما، سنكتشف ذلك بالتحديد حين نصل إلى بيرلستون نفسها. أعرف أن صاحبنا لن يترك على مسرح الجريمة أي شيء قد يدلنا أو يرشدنا على ما حدث».

«إذن إلى بيرلستون مباشرة». صاح المفتش: «ياإلهي! لقد تأخر الوقت أكثر مما حسبت. معكما خمسة دقائق للتجهز والانطلاق».

«وقت كافي لكلينا» قال أنطونيو وهو يسرع نحو غرفته: «وبأثناء الطريق عليك أن تطلعني على كل ما يتعلق بهذه القضية».

كل ما يتعلق بالقضية كان للأسف قليلاً ولكننا أدركنا أن القضية تعد بالكثير. جلس صديقي وأخذ يفرك يديه باستمتاع وقد حصل عقله الحاد على قضية يعمل بها الأمر الذي كان بالغ الروعة بالنسبة إليه.

أخبرنا أن رسالة قد وصلته من رئيس شرطة بيرلستون محتواها كالتالي: «حضرة المفتش ماكدونالد. الطلب الرسمي لاشتراك بهذه القضية موجود في المغلف الآخر. هذه لعيونك الخاصة. أبرق لي بأي قطار ستصل هذا الصباح إلى بيرلستون وسالاقيك على المحطة ـ أو لن أستطيع ذلك إذا كنت مشغولاً جداً. إذا استطعت إحضار السيد بونتي معك فأرجوك إفعل، لأنه سيجد هنا ما يحبه ويفضله. ستظن أن كل شيء قد أعد ليعطي تأثيراً مسرحياً لو لم يكن هناك رجل مقتول في وسط المنصة. كلمتي هي: إنها قضية غريبة!».

«يبدو صديقك ذكيا» علق أنطونيو.

«أجل، مارك وايت رجل نشيط وذكي».

«لابأس هل عندك أي شيء آخر؟».

«فقط أنه سيتحفنا بكل التفاصيل حين نلتقي».

«إذن كيف عرف عن السيد دوغلاس وإنه قتل بطريقة وحشية فظة؟».

«ذلك في المغلف الرسمي. لم يقولوا: «بوحشية». فهذه كلمة لا تستعمل رسمياً. ذكروا الإسم جون دوغلاس. ذكروا أن جراحه كانت في الرأس والمصدر سلاح ناري. أيضاً ساعة ارتكاب الجريمة والتي حدثت قبيل منتصف الليلة الماضية. ذكروا أن القضية قضية جريمة دون شك. لكن لم يحصل أي اعتقال لأي شخص، وأن القضية كانت معقدة وغامضة وغير عادية. هذا كل ما نملكه في الوقت الحالي، سيد بونتي».

«إذن، بعد إذنك سنترك الأمور عند هذا الحد سيد ماك. الإغراء بتكوين نظريات على معطيات غير كافية إحدى أخطر أخطاء مهنتنا. أستطيع أن أثق بشيئين فقط في الوقت الحالي: عقل مدبر عبقري في لندن وجثة رجل مقتول في بيرلستون. السلسلة بين هاتين النقطتين هي ما علينا كشفها».

الفصل الثالث

مأساة بيرلستون

قرية بيرلستون كانت قرية صغيره مكونة من العديد من الأكواخ والبيوت الصغيرة. لقرون ظلت القرية محافظة على شكلها. وبفضل طبيعتها وبيئتها الرائعة جلبت إليها العديد من الساكنين الذين بنوا فيلالاتهم وسط أشجارها الخضراء. ودكاكينها الصغيرة الجميلة كانت توحي بأن القرية ستصبح بلدة متحضرة عما قريب.

على بعد نصف ميل من البلدة ووسط ساحة محاطة بأشجار الخوخ كان يقع منزل آل دوغلاس. منزل ضخم أثري كان يسكن به آخر فردين من آل دوغلاس، جون دغلاس وزوجته. دوغلاس كان رجلاً محترماً بشخصيته وشخصه، كان بعمر الخمسين، بوجه قوي صلب وملامح وسيمة. كان كريماً مع جميع من حوله من القرويين الذين استغربوا مجيء هكذا شخص مثقف وغني إلى قريتهم المتواضعة لكنه أسر قلوبهم بلطفه وبمشاركتهم كل أفراحهم وأحزانهم وكذلك كان يتعامل معهم بكل تواضع ورقة. ولهذا فقد حظي جون دوغلاس بصيت وشهره ذائعين في كل بيرلستون.

زوجته. بدورها، كانت معروفة بأناقتها ورقتها وكانت قد تعرفت على

زوجها في لندن وكان هو أرملاً ثرياً وهي فتاة شابة وجميلة وتصغره بعشرين عاماً تقريباً. تزوجا ومرا ببعض المشاكل الناتجة عن قلة الثقة. فالزوجة كانت تقلق كثيراً كلما تأخر زوجها عن موعد عودته. هذا الموضوع كان مثار الشائعات والثرثرة بين أهالي القرية.

شخص ثالث كان يعيش تحت سقف آل دغلاوس وهو السيد جيمس بيكر، الطويل القامة الرياضي الجسد والمعروف في قرية بيرلستون كونه صديقاً مألوفا وشبه دائم في منزل آل دوغلاس. بيكر نفسه كان صديقاً لدوغلاس ولزوجته وكان يقضي أوقاته بالتنزه في البلدة وركوب الخيل ومرافقة الزوجة بنزهات على ظهر الخيل. هذه الصداقة وباعتراف الخدم كان أحياناً تثير انزعاج دوغلاس وتوتره. هذا كان ثالث شخص موجود داخل المنزل حين حدثت المأساة. الباقين كانوا الخدم وهم روجر رئيس الخدم والسيدة آلين مدبرة المنزل. الخدم الستة الباقون لم تكن لهم أية علاقة بأحداث الليلة السادسة من شهر كانون الثاني.

في تمام الساعة 11,45 وصل الإنذار الأولى إلى مركز الشرطة وإستلمه الرقيب ويلسون. السيد جيمس بيكر وصل إلى باب المركز واضطرابه واضح وظاهر ورن الجرس بقوة. مأساة مروعة قد حدثت في منزل دوغلاس ودوغلاس نفسه قد تعرض للقتل. هذه كانت رسالته المتقطعة اللاهثة. عاد مسرعاً إلى المنزل وتبعه بعض لحظات الشرطي الذي وصل إلى مسرح الجريمة حوالي الثانية عشرة ليلاً بعد إخباره السلطات عن الأخر الخطير الذي حدث.

بوصوله إلى منزل المغدور وجد الشرطي الأضواء كلها مضاءة، الستائر مرفوعة والمنزل كله في حالة فوضى عارمة وذهول. الخدم بوجوههم الشاحبة البيضاء كانوا يتراكضون في الممرات. فقط جيمس بيكر بدا مسيطراً على أعصابه وعواطفه. فتح الباب الأقرب للمدخل وأشار للشرطي ليتبعه.

بهذه اللحظة وصل الطبيب وايلد. وهو طبيب معروف في القرية. الرجال الثلاثة دخلوا الغرفة سوياً فيما الحارس المرعوب رئيس الخدم يتبعهم ويغلق الباب خلفهم.

الرجل المقتول كان مستلقيا على ظهره وذراعيه مفتوحين في وسط الغرفة. كان يرتدي مأزر نوم زهري فوق ملابس نومه وكان ينتعل خفاً رقيقاً. إنحنى الطبيب بجانبه وقرب المصباح منه. المشهد المروع أمامهم دلهم على المأساة. على صدر القتيل كان هناك سلاح غريب مزدوج الطلقات وكان من الواضح أن الرصاصتين قد فجرتا رأس المغدور وهشمته إلى قطع متناثرة بسبب إطلاقهما من مسافة قريبة جداً.

إضطرب الشرطي وانزعج بالمسؤولية الضخمة التي وقعت عليه فجأة. «لن نلمس أي شيء إلى أن يصل رؤسائي» قال الشرطي بصوت منخفض وهو يحدق بالرأس المخيف.

«لم يُلمس أي شيء حتى الآن» قال بيكر: «لقد عملت على ذلك. ترون كل شيء كما رأيته لحظة دخولي تماماً».

«متى كان ذلك؟» سأل الشرطي وهو يسحب دفتر ملاحظاته.

«في الساعة الحادية عشرة والنصف. لم أكن قد بدأت بخلع ملابسي استعداداً النوم، وكنت أجلس قرب المدفأة في غرفة نومي حين سمعت الصوت. لم يكن صوتاً عالياً ـ بل كان مضغوطاً وخافتا. أسرعت بالنزول وبعد أقل من نصف دقيقة كنت في هذه الغرفة».

«هل كان الباب مفتوحاً؟».

«أجل، كان مفتوحاً. دوغلاس المسكين كان مرمياً على هذه الحالة. شمعة غرفة نومه كانت لا تزال مشتعلة على المكتب. أنا من أضاء المصباح بعد بعض الدقائق».

«ألم ترى أي شخص؟».

«كلا، سمعت صوت أقدام السيدة دوغلاس وهي تسرع بنزول السلالم بعدي وهرعت خارج الغرفة لأمنعها من رؤية هذا المنظر المريع. السيدة آلين، مديرة المنزل، أتت واصطحبتها بعيداً. وصل روجر وأنا وهو عدنا إلى هذه الغرفة».

«لكني أسمع دوما أن الجسر المؤدي إلى المنزل يبقى مرفوعاً طوال الليل».

«هذا صحيح، فقد كان كذلك وأنا من أنزله حتى أذهب إلى المركز».

«إذن كيف يتمكن أي مجرم من الفرار؟ هذا غير معقول. لا شك أن السيد دوغلاس قد أطلق النار على نفسه».

«هذه كانت فكرتنا الأولى. لكن أنظر» قال بيكر وفتح الستارة لتظهر النافذة الواسعة المفتوحة على مصراعيها. «وانظر إلى هذا» تابع وقرب المصباح من حافة النافذة الخارجية: «أنظر بقعة الدماء هذه هنا إنها تدل أن أحدهم وضع قدمه هنا وهو بطريقه للهروب».

«تقصد أن أحدهم قد ألقى بنفسه في النهر؟».

«بالضبط».

«لكنك قلت أنك كنت بالغرفة بعد نصف دقيقة من سماعك لصوت الطلقات، فلا شك أن المجرم كان في الماء بهذا الوقت».

«لاشك بذلك. أتمنى من أعماقي لو أنني أسرعت إلى النافذة حينها. لكن الستائر تخفي النافذة خلفها، كما ترى، وهكذا لم يخطر الأمر ببالي. ثم سمعت بعد ذلك خطوات السيدة دوغلاس ولم أكن لأدعها تدخل الغرفة وتشاهد المنظر المريع. كان هذا ليقتلها».

«إنه منظر مريع فعلاً» علق الطبيب وهو ينظر إلى الرأس المتناثر والعلامات المريعة حوله: «لم أرَ هكذا إصابة منذ تحطم قطار بيرلستون».

«لكني أقول» علق الشرطي وهو يحدق بالنافذة المشرّعة: «من المحتمل

جداً أن المجرم قد هرب عبر هذه النافذة إلى النهر المحيط بالمنزل لكن ما أسألك إياه هو ـ كيف وصل المجرم أساساً إلى المنزل ما دام الجسر مرفوعاً؟».

«آه، هذا هو السؤال» قال بيكر.

«في أية ساعة يُرفع الجسر؟».

«وفي الساعة السادسة تقريباً» رد روجر، رئيس الخدم.

«سمعت» قال الشرطي: «أنه يرفع عادة عند المغيب. وهذا يعني حوالي الساعة الرابعة والنصف وليس السادسة بمثل هذا الوقت من سنة».

«كان لدى السيدة دوغلاس ضيوف على الشاي» ردالخادم: «لم أستطع رفعه إلا بعد مغادرتهم حوالي الساعة السادسة».

«إذن الأمر هكذا» قال الشرطي: «إذا كان أحدهم قد دخل من الخارج ـ إذا كانوا من الخارج ـ فقد دخلوا عبر الجسر قبل الساعة السادسة وقبعوا في الداخل هنا حتى وصل السيد دوغلاس إلى هذه الغرفة بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً».

«هذا ممكن. فالسيد دوغلاس معتاد على تفقد كل غرف المنزل كل ليلة قبل خلوده للنوم. هذا ما أوصله إلى هذه الغرفة. الرجل كان بانتظاره وأطلق النار عليه. ثم فر هارباً عبر النافذة تاركاً سلاحه خلفه. هذا هو تصوري للأمر ـ لأن لا شيء آخر يفسر ما حدث».

تناول الشرطي بطاقة كانت بجانب الرجل القتيل على الأرض. كان مكتوباً عليها ف. ف والرقم 341.

«ما هذا؟» سأل رافعاً البطاقة.

نظر بيكر إليها بفضول.

«لم أنتبه لها من قبل» قال: «لا شك أن القاتل قد تركها خلفه».

«ف. ف 314. لا أستطيع أن أفسر ذلك!».

«ما هي الأحرف ف. ف. الأسماء الأولى لشخص ما ربما، ما الذي

يوجد هناك حضرة الطبيب وايلد؟».

كانت قطعة حديدية عبارة عن مطرقة وعلى السجادة قرب المدفأة كان هناك صندوق مسامير.

«السيد دوغلاس كان يغير مكان اللوحات البارحة». قال بيكر: «رأيته بنفسي يقف على ذلك الكرسي هناك ويثبت تلك اللوحة الضخمة. هذا يفسر وجود المطرقة».

«من الأفضل أن نعيدها إلى السجادة حيث وجدناها» قال الشرطي: «ستحتاج هذه القضية إلى أفضل أدمغه السلك لتحلها. سيكون عملاً من اختصاص شرطة لندن قبل مرور وقت طويل».

رفع المصباح ودار به حول الغرفة وصاح: «ياه!» وساحباً الستائر إلى جهة واحدة: «في أية ساعة أغلقت هذه الستائر؟».

«حين كانت الأضواء مضاءة» قال رئيس الخدم: «أي بعد الرابعة تقريباً».

«أحدهم كان مختبئاً خلف هذه الستارة» قال وقرب الضوء من الأرض حيث كان هناك آثار حذاء موحل على أرض الزاوية: «أقول أن هذا يثبت نظريتك سيد بيكر. يبدو أن الرجل قد دخل المنزل بعد الساعة الرابعة، حين كانت الستائر مغلقة، وقبل الستة، حين رُفع الجسر تسلل إلى هذه الغرفة لأنها كانت الغرفة الأولى التي رآها. لا يوجد أي مكان آخر يختبىء به، ولهذا فقد تسمر خلف هذه الستارة. يبدو هذا واضحاً كفاية. من الواضح أن فكرته الأساسية كان تكمن بسرقته المنزل، لكن صدف أن السيد دوغلاس فاجأه فقتله الأول وفر هارباً».

«هكذا أتخيل الأمر» قال بيكر: «لكني أقول، ألسنا نضيع وقتاً ثميناً؟ ألا نستطيع أن نخرج ونمسح المنطقة في الخارج قبل أن يهرب المجرم بعيداً؟».
فكر الشرطي للحظة.

«لايوجد أية قطارات مغادرة قبل السادسة صباحاً. ولهذا فلا يستطيع الهروب عبر القطار. إذا تنقل بالشارع والدماء منتشرة على ثيابه فسيثير انتباه الناس. على كل حال، لا أستطيع مغادرة المكان هنا إلا حين يصل أحدهم ليحل مكاني، لكن أرى أنه من الأفضل ألا يغادر أي أحد منكم المكان قبل توضيح بعض الأمور».

الطبيب كان يضع المصباح قرب الجثة ويتفحصها.

«ما هي هذه العلامة؟» سأل: «هل لهذا أية علاقة بالجريمة؟».

الطبيب كان يكشف على ذراع القتيل ووجد علامة غريبة عبارة عن مثلث داخل دائرة موجودة على ذارعه الأعلى فوق كوعه.

«هذا ليس وشماً» قال الطبيب: «لم يسبق لي أن رأيت أي شيء مشابهاً لهذا. لقد دُمغ هذا الرجل فيما مضى، كما يدمغون الماشية. ما معنى هذا؟»

«لا أتنبأ أنني أعرف ذلك» قال بيكر: «لكني رأيت هذه العلامة على ذراع دوغلاس منذ عشر سنوات تقريباً».

«وكذلك أنا أكد روجر. رئيس الخدم: «عدة مرات حين كان سيدي يرفع أكمامه أمامي كنت أرى هذه العلامة. ولطالما تساءلت عن سرها!».

«إذن لاعلاقة لهذه العلامة بالجريمة. على كل حال» قال الشرطي: «لكنه أمر غامض. كل شيء متعلق بهذه القضية غريب مريع. لابأس، ما الأمر الآن؟».

ظهر على وجه الحارس علامات الذهول وكان يشير إلى يد القتيل الممدودة.

«لقد أخذوا خاتم زواجه!» قال بشهقة.

«ماذا!!».

«أجل. فعلاً! سيدي دائما يرتدي خاتم زواجه الذهبي في إصبعه الصغير في يده اليسري. ذلك الخاتم المسطح كان يرتديه مع خاتم الزفاف وهذا الخاتم ذو الثعبان الملتوي في الأصبع الأوسط. الخاتمين موجودين لكن خاتم الزفاف قد اختفى».

«إنه على حق» رد بيكر.

«هل تقولون لي» قال الشرطي: «أن خاتم الزفاف كان ثالث الثلاثة؟».

«دوماً».

«إذن القاتل. أو كائناً من كان. قد خلع الخاتم المسطح هذا. ثم خلع خاتم الزفاف ثم أعاد الخاتم المسطح إلى مكانه!».

«هذا صحيح» هز الشرطي رأسه.

«يبدو لي أنه كلما أسرعنا بالإتصال بلندن كلما كان أفضل» قال: «مارك وايت رجل ذكي. ولا أي قضية سابقة وقفت بوجهه. لن يمر وقت طويل قبل أن يصل إلى هنا لمساعدتنا. على كل حال، أقول أنها مسألة تصعب على تفكيري».

الفصل الرابع

الظلام

تمام الساعة الثالثة ليلاً شهدت وصول المفتش الأول مارك وايت إلى مسرح الجريمة بعد اتصال الشرطي به. وكان قد أرسل بطلب المفتش ماكدونالد من الاسكوتلانديارد وكان في محطة بيرلستون في تمام الساعة الثانية عشرة لإستقبالنا، السيد وايت كان رجلاً هادىء الطباع لطيف المعشر بوجه منتفخ وجسد متوسط الحجم وكان يبدو كأحد المزارعين بلباسه العادي البسيط.

«قضية غير واضحة مطلقاً، سيد ماكدونالد» ظل المفتش يكرر: «سيكون كل رجال السلك على بابنا حين نفهمها. آمل أن نتوصل إلى حلها قبل أن يحشر رجال المباحث الجنائية أنوفهم بهذه القضية ويخربوا كل الأدلة. لا أذكر مسألة مشابهة لهذه منذ بدئي بالعمل. ستصلك بعض المعلومات إلى المنزل سيد بونتي، إذا لم أكن مخطئاً. وأنت كذلك، حضرة الطبيب، واكسون، لأن الطب يجب أن يقول كلمته أيضاً. غرفتك في فندق آرمز. لا يوجد مكان غيره لكني سمعت أنه نظيف وجيد. سيحمل الرجل حقائبكم. من هنا حضرة الساده. لوسمحتم».

كان رجلاً نشيطاً وعملياً، هذا المفتش.

بعد عشر دقائق كنا في غرفنا في الفندق. وبعد عشر دقائق أخرى كنا في شرفة المطعم نراجع صور عن المحضر الشرطة الذي سردته في الفصل السابق سجل المفتش ماكدونالد بعض الملاحظات فيما أخذ أنطونيو يهز رأسه بدهشة.

«رائع» قال: «رائع جداً بالكاد أذكر قضية تحمل مثل هذه الصفحات الخاصة».

«أعتقدت إنك ستقول ذلك، سيد بونتي» قال المفتش وايت: «لقد تفحصت كل شيء وأستطيع إضافة بعض النقاط على تقرير الشرطي».

«ما هي هذه النقاط؟» سأل أنطونيو بلهفة.

«حسنا، أولاً لقد تفحصت المطرقة. وكان الطبيب وايلد. لم نشاهد أي علامات عنف عليها. كنت آمل أنه لو دافع السيد دوغلاس عن نفسه بالمطرقة لكان ترك عليها بعضاً من آثار المجرم نفسه. لكن لم يكن عليها أي أثر».

«هذا بالطبع لايبرهن أي شيء» علق المفتش ماكدونالد: «لقد حصلت العديد من الجرائم بالمطرقة دون ترك أي أثر عليها».

«هذا صحيح. هذا لا يبرهن أن المطرقة لم تستعمل. لكن كان من المحتمل أن يكون عليها بعض اللطخات وكان ذلك ليساعدنا. ثم تفحصت بعد ذلك السلاح. كانت بندقية صيد وكما لاحظ الشرطي فإن كلا الزنادين قد أُطلقا سوياً. مهما كان من تدبر هذا الأمر فهو كان يعمل بثقة على ألا يفلت المغدور من بين يديه. البندقية لم تكن بالغة الطول وبامكان أي شخص أن يحملها تحت معطفه. لم يكن عليها إسم الصانع بل أحرف «بن» محفورة على الزناد وبقية الإسم غير موجودة».

«حرف «بـ» كبير ـ وحرف النون أصغر حجما؟» سأل صديقي: «بالضبط».

«أنها شركة بنسلفانيا للاسلحة ـ شركة أمريكية معروفة» قال أنطونيو حدق المفتش وايت بصديقي بدهشة كالقروي المنذهل لتمكن اللندني من حل أحرف تربكه وبظرف لحظات.

«هذا مساعد جداً سيد بونتي. لا شك أنك على حق. رائع ـ رائع! هل تحفظ أسماء كل شركات صنع الأسلحة في ذاكراتك؟».

تجاهل أنطونيو الموضوع بحركة من يده.

«لاشك أنها من صنع أمريكي» تابع المفتش وايت: «فقد قرأت أن المحاربين هناك يستعملون هذا النوع من البنادق. بعيداً عن إسم الشركة لقد طرأ هذا الأمر على بالي. هناك دليل إذن أن الرجل الذي دخل المنزل وقتل سيده هو أمريكي».

هز ماكدونالد رأسه: «يارجل. أنت تتسرع بإلقاء الأحكام» قال: «لم أسمع أي دليل بعد أن أي شخص غريب قد دخل المنزل من الأساس».

«النافذة المفتوحة، بقعة الدم على الحافة الخارجية، البطاقة الغريبة، أثار الحذاء الموحل في الزاوية، السلاح».

«ولاشيء من كل هؤلاء قد لا يكون مدبراً. السيد دوغلاس كان أمريكيا، أو أنه قد عاش لفترة طويلة في أمريكا. وكذلك السيد بيكر. لست بحاجة لإحضار أمريكي من الخارج لتنفيذ عملاً أمريكيا».

«روجر، رئيس الخدم ـ».

«ماذا عنه؟ هل هو محل ثقة؟».

«عشرة سنوات مع السيد شارلز شاندون ـ وكان صلبا كالصخرة. كان بخدمة دوغلاس منذ امتلاك هذا الأخير للمنزل الأثري قبل خمس سنوات.

لم يسبق له وشاهد سلاحا مماثلاً لهذا في المنزل من قبل».

«لقد صنع السلاح ليُخفى. لهذا حجمه كان صغيراً. بالامكان إخفاءه بأي صندوق. كيف كان بإمكانه أن يقسم أنه لم يشاهدسلاحاً مماثلاً من قبل في المنزل؟»

«حسنا، على كل حال، هو لم يسبق له أن رآه».

هز ماكدونالد رأسه الذكي: «لست مقتنعاً حتى الآن أن أحدهم قد دخل المنزل. أطلب منك أن تعتبر ما يتضمنه الأمر لو أنك تفترض أن السلاح قد أُدخل إلى المنزل وأن كل هذه الأشياء الغريبة قد قام بها شخص من الخارج. آه، يا رجل، إنه أمر مستبعد! إنه شيء يناقض المنطق. أحيل الأمر إليك سيد، بونتي، أحكم عليه كما تراه أنت».

«لا بأس أذكر قضيتك سيد ماك» قال صديقي.

«الفاعل ليس سارقاً، هذا إذا افترضنا أنه موجود من الأصل. الخاتم والبطاقة أستعملا للإيحاء بأن الجريمة حدثت بدافع شخصي. جيد جداً. هنا رجل يتسلل إلى المنزل بنية محدده وهي قتل صاحب المنزل هو يعرف. إذا كان يعرف كل شيء إنه سيواجه صعوبة بمغادرة المنزل. بما أن المنزل محاطاً بالمياه. فأي سلاح يختار؟ ستقول أكثر الأسلحة صمتاً في الأرض. عندها سيكون عنده أملا أنه بعد انتهاء مهمته سيتمكن من مغادرة المنزل بفرصة أفضل بكثير من استعماله لسلاح يصدر أي صوت. هذا مفهوم. لكن هل من المفهوم أن يحضر معه أكثر الأسلحة ضجيجاً وصوتاً في العالم ليرتكب بها جريمته مدركاً أن الصوت سيجلب كل شخص داخل المنزل بأقصى سرعة وأنه من الممكن جداً أن يشاهده أحدهم قبل هروبه عبر النافذة؟ هل هذا معقول سيد بونتي؟.

«حسن، أنت تشرح القضية بمنطق وذكاء» رد صديقي بتفكير: «إنها قضية بحاجة للشرح فعلاً. هل لي أن أسأل سيد وايت، إن كنت قد

تفحصت ضفاف النهر على الفور لترى إن كان هناك أي أثر للرجل المطلوب؟».

لقد فعلت لكن لم يكن هناك أي أثر، سيد بونتي، فالضفاف صخرية ومن الصعب ترك أي أثر عليها».

«لم تشاهد لا آثار ولا علامات؟».

«أبداً!».

«آه! هل عندك أي اعتراض سيد وايت. على ذهابنا إلى المنزل على الفور؟ هناك نقطة صغيرة قد تكون موحية».

«كنت على وشك أن أقترح ذلك عليكم، سيد بونتي، لكني رأيت أنه من الأفضل إطلاعكم على كل الحقائق قبل الإنطلاق».

«عين الصواب!».

«إذن تفضلوا الآن حضرة السادة ويشرفنا وجودك معنا سيد بونتي وكذلك حضرة الطبيب واكسون وقد يكون لنا جميعاً مكاناً في كتابه».

إتجهنا نحو المنزل المقصود عبر طرقات القرية الرملية إلى أن وصلنا إلى المنزل الأثري الذي يعود تاريخه لثلاثة قرون مضت. كان منزلاً من الحجر الرمادي وكان مبنياً على شكل قلعة والمياه تحيط به من كل جانب.

«تلك هي النافذة» قال المفتش وايت وهو يشير إلى نافذة في أقصى اليمين: «إنها التي تقع مباشرة فوق الجسر. وهي لا تزال مفتوحة كما كانت البارحة بالضبط».

«تبدو ضيقة لمرور رجل عبرها».

«حسن، يبدو أنه لم يكن رجلاً سميناً. لانحتاج إلى استنتاجاتك سيد بونتي لنعرف ذلك. لكن أنا أو أنت بإمكاننا التسلل عبرها بدون صعوبة».

مشى أنطونيو إلى الضفة القريبة وتفحصها.

«لقد تفحصت المكان بدقة سيد بونتي ولم أعثر على أي شيء» قال وايت: «ولا أي علامة أن أحدهم قد مر. لكن لماذا سيترك الفاعل أي أثر؟».

«بالضبط، لماذا يفعل؟ هل المياه دوماً معكّرة؟»

«عادة تكون بمثل هذا اللون. الجدول يحضر معه التراب».

«كم هو عمق المياه؟».

«حوالي قدمين على الأطراف وثلاثة في الوسط».

«إذن لا مجال مطلقا لفكرة أن الرجل قد غرق تحت المياه؟».

«كلا، يستطيع الطفل عبور النهر دون أن يغرق».

دخلنا المنزل عبر الجسر المتحرك واستقبلنا على الباب رجل شاحب قوي الجسد كان رئيس الخدم ـ روجر. المسكين كان شاحب اللون بشدة ويرتعش من هول الصدمة. كان برفقته أيضاً رقيب الشرطة في القرية بشكله الرسمي الطويل القامة. الطبيب كان قد غادر.

«أي شيء جديد. رقيب ويلسون؟» سأل المفتش وايت.

«كلا سيدي».

«إذن بإمكانك العودة إلى منزلك. لقد نلت كفايتك نستطيع أن نرسل بطلبك إذا احتجنا لك. من الأفضل أن ينتظر رئيس الخدم في الخارج. قل له أن يخبر السيد بيكر، السيدة دوغلاس ومدبرة المنزل أننا قد نسألهم بعض الأسئلة بعد قليل. والآن أيها السادة. إسمحوا لي أن أخبركم عمّا كونته حول هذه القضية وبعدها تستطيعون أن تصلوا إلى تصوراتكم الخاصة».

لقد أثار إعجابي مفتش الريف هذا. لقد كان عملياً بارداً عقلانيا ومنطقياً مما يؤهله للإرتفاع في منصبه. إستمع أنطونيو له بإنتباه.

«هل القضية قضية انتحار أم جريمة قتل ـ هذا سؤالنا الأول، حضرة السادة، أليس كذلك؟ إذا كانت قضية إنتحار فعلينا التصديق أن الرجل قد بدأ ذلك بخلع خاتم زواجه وإخفائه، ثم أنه حضر إلى هنا بثياب نومه،

وضع الوحل في الزاوية حتى يوهم الآخرين أن أحدهم كان بانتظاره، فتح النافذة، وضع الدم على الـ ـ».

«نستطيع بالطبع إستبعاد هذا الأمر» قاطعه ماكدونالد.

«هذا مااعتقده أنا بدوري أيضاً. الإنتحار خارج نطاق البحث. إذن فما حدث هنا هو جريمة قتل. ما علينا تحديده هو ما كانت الجريمة قد نفذت بواسطة شخص من خارج المنزل أو من داخله».

«لابأس لنسمع وجهة نظرك».

«هناك صعوبات جمة في كلا الحالتين، ولكن حالة منها هي الحقيقة. سنفترض أولاً أن شخصاً أو أشخاصاً من الداخل ارتكبوا الجريمة. أحضروا الرجل إلى هنا حين كان كل شيء هادئاً وساكناً لكن لم يكن أحدهم قد خلد للنوم بعد. ثم قاموا بقتل الرجل بأكثر الأسلحة ضجيجاً وإزعاجاً. كأنهم يريدون إخبار الجميع بما حدث ـ سلاح لم يسبق وأن شوهد داخل المنزل. هذه لا تبدو بداية مقنعة، لا؟».

«صحيح».

«إذن الجميع موافق إنه بعد إطلاق الرصاص لم تمضي دقيقة واحدة قبل أن هرع جميع من في المنزل نحو مكان الصوت ـ ليس السيد بيكر وحده. مع أنه يدعي أنه أول من وصل إلى مسرح الجريمة، بل روجر وجميع الخدم ـ كانوا جميعاً في المكان المحدد. هل من المعقول أن الفاعل تدبر بتلك اللحظة ترك آثار الوحل في الزاوية، فتح النافذة، وضع الدم على الحافة، إنتزع خاتم المجني عليه وهرب؟ هذا مستحيل!».

«أنت تشرح القضية بوضوح» قال أنطونيو: «أنا موافق تماماً معك».

«حسن، إذن نحن نرجع مجدداً إلى أن الجريمة قد نفذت من قبل شخص من خارج المنزل. لكن هنا أيضاً تواجهنا بعض الصعوبات الجمة، لكنها، على الأقل ليست ضمن مجال المستحيل. الشخص دخل المنزل بين الساعة

الرابعة والنصف والسادسة ـ أي بين المغيب ووقت رفع الجسر المتحرك. كان بعض الزوار داخل المنزل، وكان الباب مفتوحاً، ولهذا لم يمنعه شيء من الدخول. لربما كان مجرد لصاً عادياً، أو أنه كان يكنّ للسيد دوغلاس ضغينة ما. بما أن السيد دوغلاس قضى معظم سنين حياته في أمريكا، وهذا السلاح أمريكي الصنع، فإن مسألة الضغينة الشخصية تبدو الأكثر احتمالاً. تسلل إلى هذه الغرفة لأنها كانت الغرفة الأولى التي مر بها، فدخلها واختبأ خلف الستارة. بقي في مكانه هذا حتى الساعة الحادية عشر والنصف ليلاً. بهذا الوقت تقريباً دخل السيد دوغلاس الغرفة. كانت مقابلة قصيرة. إذا كان هناك أية مقابلة من الأصل، لأن السيدة دوغلاس تعلن أنه بعد مضي دقائق قصيرة على ترك زوجها لها سمعت صوت الطلقات».

«الشمعة بدورها تؤكد ذلك» قال صديقي.

«بالضبط، الشمعة، التي كانت جديدة، ليست محروقة سوى لنصف إنش فقط. لاشك أنه قد وضعها على المكتب قبل أن يتعرض للهجوم وإلا، لكانت سقطت على الأرض حين سقط هو. هذا يثبت أنه لم يهاجم باللحظة التي دخل بها الغرفة. حين وصل السيد بيكر كان المصباح مضاءاً والشمعة مطفأة».

«هذا واضح تماماً».

«حسن، والآن نستطيع إعادة رسم الخطوط كالتالي. السيد دوغلاس يدخل الغرفة. يضع الشمعة على المكتب. يظهر الشخص من خلف الستارة. وهو مسلح بهذا السلاح. يطالب بخاتم الزفاف الخاص بالسيد دوغلاس ـ السماء وحدها تعرف السبب، لكن لا شك أن هذا ما حصل. السيد دوغلاس يناوله إياه. بعدها إما بأعصاب باردة أو بصراع ما ـ لربما يكون دوغلاس قد أمسك بالمطرقة التي كانت على الأرض ـ أطلق الشخص النار على دوغلاس بتلك الطريقة المريعة. رمى بسلاحه، وكما يبدو هذه البطاقة الغريبة: «ف. ف 341» مهما كان معناها وهرب عبر النافذة إلى النهر

ومنه إلى الضفة فيما كان بيكر يكتشف الجريمة. مارأيك بهذا، سيد بونتي؟»

«(ممتع) مثير جداً، لكنه غير مقنع تماماً».

«يا رجل سيكون أي شيء آخر مجرد ترهات» إذا لم يكن الأمر أسوأ مما ذكرت بكثير صاح ماكدونالد: «أحدهم قد قتل الرجل ومهما كان الفاعل فأستطيع أن أبرهن لك أنه قام بالجريمة بطريقة مختلفة. ما الذي يقصده بجعل هروبه سريعاً ومختصراً هكذا؟ ماالذي يقصده باستعماله سلاحاً يصدر كل هذا الضجيج في حين أن الصمت هو فرصته الوحيدة للهروب؟ هيا سيد بونتي. إننا نعطيك الأولوية بالقيادة، بما أنك تقول أن نظرية المفتش وايت ليست مقنعة».

أنطونيو كان بهذا الوقت يستمع بانتباه وعيونه البراقة تتحرك ذات اليمين وذات الشمال فيما جبينه متغضن بتفكير.

«أود الحصول على بعض الحقائق الإضافية قبل أن أعطي أية نظرية، سيد ماك» قال صديقي وانحنى قرب الجثة: «ياإلهي! هذه الإصابة فعلاً رهيبة. هل نستطيع استدعاء رئيس الخدم للحظة؟... روجر، فهمت إنك كنت تشاهد هذه العلامة الغريبة. المثلث داخل دائرة، على ذراع السيد دوغلاس دوما؟».

«أجل سيدي».

«ألم تسمع أية تلميحات حول معناها؟».

«كلا، سيدي».

«لاشك أنها سببت له الكثير من الألم حين دُمغت على ذراعه. إنها دون شك مدموغة بالنار. والآن. الاحظ. روجر أن هناك ضماده صغيره بجانب فم سيدك، هل كانت موجودة أثناء حياته؟».

«أجل سيدي، لقد جرح نفسه قليلاً البارحة أثناء حلاقته لذقنه».

«هل سبق له وجرح نفسه أثناء الحلاقة؟».

«ليس منذ مدة طويلة، سيدي».

«مؤثر» قال صديقي: «إما أن يكون قد جرح نفسه بطريقة الصدفة فقط أو إنه كان متوتراً ومضطرباً من أمر ما. هل لاحظت أي شيء غير عادي بتصرفاته البارحة، روجر؟».

«لقد صدمني لأنه كان متوتراً وعصبياً جداً، سيدي».

«هاه! الهجوم قد لا يكون مفاجئاً وغير متوقعاً. يبدو إننا نتقدم قليلاً، أليس كذلك؟ لربما عليك أن تستجوبه بنفسك، سيد ماك؟».

«كلا، سيد بونتي، الأمر بين أيدي أفضل».

«لابأس. إذن، سننتقل إلى تلك البطاقة «ف. ف 341». إنها بطاقة خشنة. هل عندكم بطاقة مثل هذه داخل المنزل؟».

«لاأعتقد ذلك».

مشى أنطونيو نحو المكتب ووضع نقطتين من محبرتين كانتا على المكتب على قطعه ورق.

«لم تطبع هذه البطاقة بهذه الغرفة» قال: «هذا حبر أسود، والآخر بنفسجي البطاقة مكتوبة بقلم حبر سميك. كلا، لقد كُتبت البطاقة في مكان آخر. هل تستطيع فهم أي شيء من هذه الأحرف أو الأرقام روجر؟».

«كلا، سيدي، لاشيء».

«ما رأيك سيد ماك؟».

«هذا يعطيني الإنطباع بتورط جمعية سرية من نوع ما. جمعية تتعلق بالدمغة الموجودة على ذارعه».

«هذه هي فكرتي أنا أيضاً» قال المفتش وايت.

«حسن، نستطيع اعتبار هذا تحليلاً ممكناً، وحينها سنرى كيف ستتذلل مصاعبنا. عميل لهذه الجمعية تسلل إلى المنزل، إنتظر وصول دوغلاس، حطم رأسه بسلاحه وهرب عبر النافذة بعد تركه لبطاقة قرب الجثة والتي

حين تشاهد ستخبر بقية أعضاء الجمعية بالانتقام الذي لحق بأحد أفرادها هذا يبدو مترابطاً. لكن لماذا هذا السلاح من بين كل أنواع الأسلحة؟».

«بالضبط».

«ولماذا خاتم الزفاف المفقود؟».

«هذا صحيح».

«ولماذا لم يحصل أي اعتقال حتى الآن؟ لقد قاربت الساعة على الثلاثة ظهراً. وافتراض أن كل رجال الشرطة قد انتشروا لعدة أميال بحثاً عن غريب بثياب مبلله؟».

«هذا صحيح، سيد بونتي».

«إذن إذا لم يكن له مكان يلتجأ إليه أو كان معه ثياب جافة يبدلها فلا بد أن تجده الشرطة. ورغم ذلك فلم تتم أية عملية اعتقال حتى الآن». إقترب أنطونيو من النافذة وكان يتفحصها بعدسته المكبرة: «هذه البقعة من أثر حذاء بالتأكيد. إنه حذاء ضخم ـ هذا أكيد. هذا مثير للفضول، الفاعل كان يتمتع بقامة طويلة رياضية. على كل حال، ما هذا تحت الطاولة؟».

«أوزان السيد دوغلاس لرياضة الذراعين» قال روجر.

«أوزان للرياضة ـ هناك فقط وزن واحد. أين الوزن الآخر؟».

«لاأعرف، سيد بونتي. لربما كان هناك وزن واحد من الأصل. لم أنتبه لها منذ أشهر».

«وزن واحد ـ» ردد أنطونيو بجدية لكن تعليقاته انقطعت بسماعنا لدقّة على الأرض. ظهر رجل طويل القامة محلوق الذقن وسيم المنظر. عرفت فوراً أنه السيد بيكر. عيونه الواسعة تنقلت بسرعة بنظرات مستاءة بين وجوهنا.

«آسف لمقاطعتي لتحقيقاتكم» قال: «لكن يجب أن تسمعوا آخر الأنباء».

«إعتقال؟».

«ليس لهذه الدرجة. لكنهم وجدوا دارجته. لقد ترك الفاعل دارجته خلفه. تعالوا والقوا نظرة. إنها تبعد حوالي مئة يارد عن باب المدخل».

وجدنا ثلاثة أو أربعة مكانس بطريقنا نحو الباب الخلفي وكانت الدراجة مخفية خلف بعض النباتات الخضراء. كانت دراجة من النوع الجيد. كان في سلة الدراجة علبة زيت ومنفاخ لكن بدون أي دليل.

«ستساعد هذه تحقيق الشرطة» قال المفتش: «إذا سجلنا هذه الأشياء وحفظناها. لكن يجب أن نشكر حظنا لهذا. إذا لم نكتشف المكان الذي ذهب إليه فقد نعرف المكان الذي أتى منه. لكن ماالذي جعله يترك الدراجة هذه خلفه؟ وكيف بحق السماء هرب بدونها؟ يبدو إننا بدأنا نحصل على بعض الضوء بهذه القضية. سيد بونتي».

«لا؟» رد صديقي: «أنا أتساءل!».

الفصل الخامس

شخصيات الدراما

«هل رأيتم كل ما تريدون رؤيته بهذه الغرفة؟» سأل المفتش وايت.

«لهذا الوقت» قال المفتش ماكدونالد وطأطأ أنطونيو رأسه موافقا.

«إذن لربما ترغبون الآن بسماع التحقيق مع بعض أفراد العائلة هنا؟ نستطيع أن نستعمل غرفة الجلوس، روجر. لو سمحت تفضل أنت أولاً وأطلعنا على ما تعرف».

تقرير رئيس الخدم كان بسيطاً وواضحاً، وكان صادقاً بكلامه. لقد توظف في المنزل منذ خمسة سنوات. كان يعرف أن السيد دوغلاس رجلاً ثرياً وقد قضى معظم حياته في أمريكا. وكان رب عمل لطيف وكريم ـ هذا الشيء الذي لم يكن روجر معتاداً عليه كثيراً. لم يشاهد أية علامات خوف من السيد دوغلاس ـ بالعكس كان الرجل بالغ الجرأة. وكان يرفع الجسر كل مساء حفاظاً على تقاليد المنزل. وكان نادراً ما يذهب إلى لندن أو يغادر المنزل. لكن باليوم الذي سبق الجريمة ذهب للتسوق في نونبردج. روجر، لاحظ بعض التوتر والقلق في تصرفات سيده ذلك اليوم لأنه بدا نافذ الصبر

ومنزعجاً. وهذه لم تكن عادته. لم يخلد إلى السرير تلك الليلة، بل كان في الحديقة ينظف الفضة حين سمع جرس سيده يطلبه. لم يسمع أية طلقات لأن المسافة بعيدة بين غرفة المكتب والحديقة الخلفية. مدبرة المنزل قد خرجت من غرفتها، على صوت الجرس القوى. توجها نحو واجهة المنزل سوياً. حالما وصلا إلى أسفل السلالم شاهدا السيدة دوغلاس تنزل السلالم. كلا، لم تكن تنزل بسرعة ـ لم يظهر إنها كانت منزعجة أو مضطربة. حالما وصلت إلى أسفل السلالم أسرع السيد بيكر بالخروج من باب غرفة المكتب. أوقف السيدة دوغلاس وتوسلها للعودة إلى غرفتها.

«بحق الله. عودي إلى غرفتك» صاح السيد بيكر: «جاك المسكين قد مات. ليس باستطاعتك القيام بأي شيء. بحق الله، عودي، عودي!».

بعد إقناعه لها عادت السيدة دوغلاس إلى غرفتها. لم تصرخ. لم تتفوه بأية كلمة أو حتى شهقة. السيدة آلين، مدبرة المنزل، اصطحبتها إلى الطابق العلوي ومكثت معها في غرفتها. روجر والسيد بيكر ذهبا بعد ذلك إلى غرفة المكتب حيث شاهـدا كل شيء كما شاهدته الشرطة الآن. الشمعة لم تكن مضاءة حينها، بل المصباح كان كذلك، نظرا عبر النافذة لكن الظلام كان دامساً ولم يستطيعا مشاهدة أي شيء. أسرعا بعد ذلك بالعودة إلى البهو حيث أنزل روجر الجسر المحرك وانطلق السيد بيكر عبره ليخبر الشرطة.

هذه كانت شهادة رئيس الخدم.

شهادة السيدة آلين مدبرة المنزل كانت بسيطة وتتطابق مع شهادة روجر. غرفة مدبرة المنزل كانت في القسم الأمامي من المنزل وأقرب إلى غرفة المكتب من مكان روجر في الحديقة. كانت تستعد للخلود إلى النوم حين سمعت صوت الجرس. كانت ضعيفة السمع قليلًا. لربما لهذا لم تسمع صوت الطلقات، لكن على كل حال غرفة المكتب كانت بعيدة عن غرفتها. سمعت صوتاً ما لربما كان صوت باب يصفق بشدة. هذا كان باكرا ـ قبل

لنصف ساعة تقريباً من سماعها لصوت الجرس. حين أسرع السيد روجر نحو مقدمة المنزل سارت هي معه. رأت السيد بيكر البالغ الشحوب والاضـطراب يخرج من غـرفة المكتب ويقـاطع طـريق السيـدة دوغـلاس التي كانت تنزل على السلالم. توسل إليها لتعود إلى غرفتها أجابته لكنها لم تسمع ما كانت الكلمات.

«إصطحبيها إلى فوق. وابقي معها!» قال السيد بيكر لمدبرة المنزل. ولهذا فقد اصطحبتها إلى غرفة النوم وهدأت من خاطرها. كانت السيدة دوغلاس مضطربة وترتعش بشدة، لكنها لم تحاول النزول مجدداً. ظلت في غرفتها بمئزرها الليلي ورأسها بـين يديهـا. السيدة آلـين بقيت معها معـظم الليل فيـما يتعلق ببقية الخدم فقد عادوا إلى أسرّتهم ولم يصلهم الإنذار إلا قبل وصول الشرطة بفترة قصيرة. كانوا ينامون في آخر المنزل ولن يسمعوا أي شيء.

فيما يتعلق بمدبرة المنزل ـ فهي لم تضيف أي شيء سوى الندب والذهول.

حان الآن وقت شهادة السيد بيكر. فيما يتعلق بأحداث الليلة السابقة فلم يكن عنده الكثير ليزيده على ما قاله للشرطة. كان السيد بيكر مقتنعاً أن الفاعل قد هرب عبر النافذة. بقعة الدم على النافذة هي خير دليل على ذلك بنظره، ولكنه لم يستطيع أن يفهم كيف فر الفاعل ولماذا ترك دراجته خلفه، إذا كانت الدراجة له من الأصل. هو بالطبع لم يغرق بالنهر الذي لم يكن عميقاً.

بعقله كان هناك نظرية خاصة فيما يتعلق بالقضية. دوغلاس كان رجلاً متكتماً وهناك فصول في حياته لا أحد يعرف عنها أي شيء. كان قد هاجر من إيرلندا إلى أمريكا في سن شبابه الأولى. ازدهرت أعماله هناك وتعرف عليه السيد بيكر في كاليفورنيا، حيث تشاركا بأعمال ناجحة سوياً. وقد نجح عملهما وازدهر بشدة لكن دوغلاس باع كل شيء فجأة وقرر الهجرة إلى

إنكلترا. كان أرملاً بذلك الوقت، ترك بيكر بعد ذلك أمريكا وجاء إلى إنكلترا من أجل ماله الموجود مع دوغلاس. ولهذا فقد جددا صداقتهما. أعطاه دوغلاس الإنطباع أنه كان يشعر بوجود خطر يحدق به، وإنه قد ترك كاليفورنيا ولجأ إلى هذا المكان الهادىء بسبب ذلك الخطر. تخيل بيكر أن هناك جمعية أو مؤسسة سرية ما كانت تلاحق دوغلاس وإنها لن ترضى إلا بقتله. بعض تصرفات وحركات دوغلاس أعطته هذا الإنطباع، مع أنه لم يخبره مطلقا عن هذه الجمعية ولا كيف تورط معها. لكنه يفترض أن للبطاقة علاقة بتلك الجمعية السرية.

«خمسة سنوات».

«كان عازباً، كما تقول؟».

«أرمل».

«هل عرفت من كانت زوجته الأولى؟».

كلا، أذكر أنه قال إنها كانت سويدية وقد رأيت صورتها. كانت إمرأة بارعة الجمال. ماتت بسبب التيفوئيد قبل سنة من لقائي به».

«لم تتعرف على أي شيء حول ماضيه في أمريكا؟».

«سمعته يتكلم عن شيكاغو. هو يعرف تلك المدينة جيداً وقد عمل بها. سمعته يتحدث عن الفحم والحديد. كان يسافر كثيراً إلى هناك في ذلك الوقت».

«هل كان سياسياً؟ هل للجمعية السرية هذه علاقة بالسياسة؟»

«كلا، لم يكن يأبه مطلقاً للسياسية».

«ليس عندك أي سبب يدفعك للإعتقاد أنه كان مجرماً؟».

«على العكس، لم يسبق لي وقابلت بحياتي رجلاً مستقيماً مثله».

«هل كان هناك أي شيء فضولي حول حياته في كاليفورنيا؟».

«كان يحب ويفضل عملنا في الجبل. ما كان ليذهب إلى أي مكان فيه

الكثير من الرجال والأشخاص. لهذا اعتقدت أن أحدهم يلاحقه. ثم حين غادر فجأة إلى إنكلترا تأكدت من ذلك. أعتقد أنه استلم تحذيراً من نوع ما. بعد أسبوع واحد على رحيله جاء العديد من الرجال يسألون عنه».

«أي نوع من الرجال؟».

«لا بأس، كانوا رجالاً أشداء بوجوه صارمة. جاءوا يستفسرون عنه ويسألون حول مكان تواجده. أخبرتهم أنه قد ذهب إلى أوروبا ولا أعرف أين مكانه. لم يكونوا يضمرون له الخير ـ كان من السهل معرفة ذلك».

«هل كان هؤلاء الرجال أميركيين ـ من كاليفورنيا؟»

«لا أعرف إذا ما كانوا من كاليفورنيا. كانوا أميركيين أجل. لكنهم لم يكونوا من عمال المناجم. لا أعرف من كانوا، وكنت سعيداً جداً لرؤيتهم يرحلون».

«هذا كان قبل ستة سنوات؟»

«حوالي السبع سنوات».

«بعد هذا قضيتم خمس سنوات سوياً في كاليفورنيا، إذن هذا العمل يعود إلى حوالي أحد عشر سنة مضت؟».

«هذا صحيح».

«لا بد أنه ثأر رهيب هذا الذي ينفذ بعد عشرة سنوات. المسألة ليست سهلة أبداً».

«أظن أن هذه المسألة ظللت حياته كلها. لم يبتعد هذا الأمر عن أفكاره مطلقاً».

«لكن إذا أدرك الرجل أن الخطر يحدق به، وأدرك ماهية هذا الخطر، ألم يكن باستطاعته اللجوء إلى الشرطة؟».

«لربما كان خطراً من النوع الذي لا يستطيع أن يحمي نفسه منه. شيء

واحد يجب أن تعرفه. إنه ما كان يغادر المنزل إذا لم يكن مسلحاً. مسدسه ما كان يفارق جيبه مطلقاً. لكن، لسوء حظه، إنه كان يرتدي مئزر نومه حين ترك غرفة نومه ليلة البارحة. حالما إرتفع الجسر ظن أنه صار بمأمن من أي خطر».

«أود توضيح التاريخ بالذات» قال السيد ماكدونالد: «لقد مضت ست سنوات منذ ترك دوغلاس كاليفورنيا. تبعته في السنة التالية، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح».

«وقد مضى على زواجه خمس سنوات. لا شك أنك عدت قبيل تاريخ زواجه».

«قبل زواجه بشهر تقريباً. كنت إشبينه».

«هل كنت تعرف السيدة دوغلاس قبل زواجها؟».

«كلا، كنت بعيداً عن إنكلترا منذ عشر سنوات».

«لكنك صرت تراها دائماً بعد ذلك؟».

نظر بيكر بحدة إلى المحقق.

«صرت أراه هو أيضاً دائماً بعد ذلك» أجاب: «إذا كنت أراها فلأنك لا تستطيع أن تزور الرجل بدون رؤيتك لزوجته. إذا تخيلت أن هناك أية علاقة ـ».

«أنا لا أتخيل شيئاً، سيد بيكر. يجب أن أجري كل الإستفسارات والتحقيقات اللازمة حول هذه القضية. لكني لا أقصد أية إهانة».

«بعض استفساراتك مهينة» أجاب بيكر بغضب.

«نحن فقط نريد الحقائق. من مصلحتك ومصلحة كل من حولك أن نكشف النقاب من كل شيء. هل كان السيد دوغلاس يوافق تماماً على صداقتك مع زوجته؟».

إزداد شحوب بيكر وشبك يديه ببعضهما بتوتر.

«لا يحق لك طرح هكذا سؤال» صاح بحدة: «ما علاقة هذا بالقضية التي تحقق بها؟».

«يجب أن أكرر السؤال».

«حسناً، أنا أرفض الإجابة عليه».

«تستطيع أن تمتنع عن الرد، لكن يجب أن تدرك أن امتناعك عن الرد هو بحد ذاته رد، لأنك لن تمتنع عن الإجابة لو لم يكن عندك شيء لتخفيه».

وقف بيكر مكانه ووجهه متصلب الملامح وغرق بتفكير عميق. ثم رفع نظره نحونا بابتسام.

«لا بأس. أعتقد أيها السادة إنكم تقومون بعملكم فقط ولهذا لا يحق لي أن أمتنع عن الإجابة على أي من أسئلتكم. سأطلب منكم فقط ألا تزعجوا السيدة دوغلاس بهذه المسألة لأن لديها ما يكفيها من الهموم والتعقيدات. أستطيع أن أخبركم أن دوغلاس المسكين قد ارتكب خطاءاً وحيداً في حياته، وهذا كان غيرته. كان يحبني حباجماً ـ فقد كنا صديقين حميمين جداً. وكان مخلصاً لزوجته.

كان يجب أن آتي إلى هنا وكان دائماً يطلب مني ذلك. لكن إذا رآني أتحدث وزوجته أو لاحظ أي علامة من الإنسجام والتعاطف بيننا، كانت تجتاحه موجة من الغيرة العمياء كان ليغضب ويتفوه بأقسى الكلمات. لأكثر من مرة غادرت هذا المنزل لذلك السبب، لكنه كان يعاود مراسلتي والطلب مني بشدة المجيء إلى هنا. لكن تستطيعون أن تثقوا بكلمتي هذه، حضرة السادة، ولو كانت هذه كلمتي الأخيرة، ولا أي رجل كانت له زوجة مخلصة ومحبة مثل زوجته ـ وأستطيع القول أنه ولا أي رجل آخر أيضاً كان له صديقاً مخلصاً مثلي».

كلماته صدرت بعمق وحرارة لكن المفتش ماكدونالد لم يغلق الموضوع.

«أنت تدرك» قال المفتش: «إن خاتم زفاف المغدور قد انتزع من يده؟».
«هذا ما يبدو» قال بيكر.
«ماذا تقصد بكلمة «يبدو»؟ إن هذه حقيقة».

بدا الرجل مرتبكاً ومتوتراً.
«حين قلت «يبدو» قصدت إنه من الممكن أن يكون هو بنفسه من انتزع الخاتم».
«الحقيقة المجردة باختفاء الخاتم، كائناً من كان قد انتزعه، سيعطي تلميحاً لأي شخص أن هناك علاقة بين الزواج والمأساة التي حدثت؟».
هز بيكر كتفيه العريضتين.
«لا أستطيع التنبؤ بما يوحيه ذلك» قال: «لكن إذا قصدت أن تلمح أن ذلك قد يسيء بأية طريقة إلى شرف السيدة» ـ برقت عيناه للحظة. ثم وبجهد سيطر على أعصابه وتابع: «ـ لا بأس فأنت على الطريق الخاطيء. هذا كل شيء».

«لا أظن أن عندي أي شيء لأسألك عنه في الوقت الحاضر» قال المفتش ماكدونالد ببرود.

«هناك نقطة صغيرة بعد» علق أنطونيو: «حين دخلت الغرفة كان ضوء الشمعة فقط ينير المكان أليس كذلك؟»
«أجل هذا صحيح».
«على ضوئها رأيت أن حادثاً مريعاً قد حدث؟»
«بالضبط».
«فدققت الجرس على الفور؟»
«أجل».
«وأتت المساعدة بسرعة؟»
«بدقيقة تقريباً».

«لكن حيث وصلوا وجدوا أن الشمعة كانت مطفأة والمصباح كان مضاءاً. يبدو هذا غريباً».

مرة ثانية ظهرت إمارات التوتر على ملامح بيكر.
«لا أرى أي شيء غريب بهذه النقطة، سيد بونتي» قال بعد فترة صمت: «الشمعة كانت تلقي ضوءاً خافتاً سيئاً، فكرتي الأولى كانت الحصول على إضاءة أفضل. المصباح كان على طاولة المكتب ولهذا فقد أضأته».

«وأطفأت الشمعة؟»
«بالضبط».

لم يطرح أنطونيو أي سؤال آخر وغادر بيكر الغرفة بعد أن رمانا بنظرة تحدي متعمدة تنقلت من وجه أحدنا إلى الآخر.

حان الآن دور السيدة دوغلاس التي دخلت الغرفة الآن. بقامتها الطويلة المتناسقة ووجهها الجميل المتماسك الملامح بدرجة تثير العجب. من الواضح أن وجهها كان شاحباً وبارداً كمن تعرض لصدمة كبيرة لكنها كانت متماسكة واليد التي وضعتها على الطاولة كانت ثابتة كيدي أنا. عيونها الحزينة المتوسلة انتقلت من أحدنا إلى الآخر، بتعبير استفسار فضولي. النظرة المتسائلة أخذت شكل السؤال فوراً.

«هل توصلتم لأي شيء؟» سألت.
هل تهيأ لي أن الخوف هو الذي يغلف صوتها وليس الإستفسار؟
«لقد أخذنا كل الخطوات الممكنة، سيدة دوغلاس» قال المفتش: «عليك التأكد إننا لن نغفل عن أي شيء».
«لا تكترثوا لمسألة المال» قالت بصوت ميت النبرات: «رغبتي هي ألا توفروا أي جهد ممكن».
«لربما استطعت إلقاء بعض الضوء على القضية».

«أخشى إنني لن أستطيع ذلك. لكنني سأجيب بسرور على كل أسألتكم».

«لقد عرفنا من السيد بيكر إنك لم تشاهدي فعلاً - إنك لم تدخلي غرفة المكتب منذ حدوث المأساة؟»

«كلا، لقد طلب مني العودة إلى غرفتي وأنا على السلالم. توسلني أن أفعل ذلك».

«حسناً، لقد سمعت صوت الطلقات ونزلت فوراً».

«وضعت مئزري علي ثم نزلت فوراً».

«كم من الوقت مضى بين سماعك صوت الطلقة وبين إيقاف السيد بيكر لك على السلالم؟»

«لربما دقيقتين أو ما يقارن ذلك. من الصعب تحديد الوقت بالضبط بمثل هذه الحالة. توسل ألا أدخل الغرفة وأكد لي أنني لا أستطيع القيام بأي شيء. ثم قادتني، سيدة آلين إلى الطابق العلوي. كل هذا كان كالكابوس المزعج».

«هل تستطيعين أن تخبرينا كم مضى على نزول زوجك من غرفة النوم حين سمعت صوت الطلقة؟»

«لا، لا أعرف. لقد ترك غرفة ملابسه ولم أسمعه متى نزل بالضبط. وهو يقوم بجولة على كل غرف المنزل كل ليلة لأنه كان يخشى من اندلاع حريق ما. هذا هو الشيء الوحيد الذي كان يخيفه»

«هذه هي النقطة التي أريد الوصول إليها، سيدة دوغلاس. لقد تعرفت على السيد دوغلاس هنا في إنكلترا، لا؟».

«أجل، لقد مضى على زواجنا خمس سنوات حتى الآن».

«هل سمعته يتحدث عن أي شيء قد حدث له في أميركا وقد يشكل له

خطراً ما؟».

فكرت السيدة دوغلاس بعمق للحظات.

«أجل» قالت أخيراً: «لطالما شعرت أن خطراً ما يحوم حوله. رفض مناقشة هذا الأمر معي. ليس السبب عدم ثقته بي - كان هناك كل الحب والثقة بيننا - لكنه كان لا يريد أن يثير اضطرابي. قال إنني سأعظم الأمور إذا عرفتها ولهذا فقد ظل صامتاً».

«كيف عرفت بالأمر إذن؟».

أضاء وجه السيدة دوغلاس بابتسامة سريعة.

«هل يستطيع الرجل الإحتفاظ بسر حول حياته بوجود زوجة محبة بجانبه دون أن تشك بذلك؟ عرفت بذلك من عدة أمور. عرفت ذلك من جراء رفضه التام للتحدث حول بعض الفصول عن حياته في أمريكا. عرفت ذلك من بعض الإحتياطات التي كان يقوم بها. عرفت ذلك من بعض الكلمات التي كانت تفلت منه بين الحين والآخر. عرفت ذلك من طريقة نظرته إلى الغرباء الغير متوقع حضورهم. كنت واثقة تماماً أن عدواً قوياً يترصد به وإنه كان يعرف إنه أو إنهم يتعقبونه وأنه كان مضطراً للاحتراس والانتباه. كنت واثقة من ذلك ولهذا طوال كل السنوات الماضية كنت أموت رعباً كلما تأخر بالعودة إلى المنزل».

«هل لي أن أسأل» سأل أنطونيو: «ما هي الكلمات التي لفتت انتباهك؟».

«وادي الرعب» ردت السيدة: «هذا رد استعمله حين سألته: «كنت أعيش في وادي الرعب. ولم أخرج منه بعد». «ألن تخرج بتاتاً من وادي الرعب؟» سألته هذا السؤال حين رأيته مرة شديد الإضطراب والعصبية. رده كان: «أحياناً أعتقد إننا لن نفعل ذلك مطلقاً».

«بالطبع سألته عما يعنيه «بوادي الرعب»؟».

«لقد فعلت، لكن وجهه كان يتصلب ويهز رأسه. «من السيء كفاية أن يكون أحدنا عارف لهذا الأمر ويعيش بظله» قال: «أتوسل الله ألا يورطك أنت به». كان ذلك وادياً حقيقياً سبق له وعاش به وهناك واجه أمراً مريعاً ـ من هذا أنا متأكدة ـ لكني لا أستطيع إخباركم بشيء أكثر من هذا».

«ولم يذكر مطلقاً أية أسماء؟».

«بلى، كان مصاباً بالحمى مرة حين تعرض لحادثة صيد قبل ثلاث سنوات. أذكر إنه ظل يردد الإسم ذاته. كان يتلفظ به برعب وغضب. ماكسيل كان الإسم ـ الرئيس ماكسيل. سألته حين استرد عافيته عمن يكون صاحب إسم ماكسيل هذا وكان رئيس من. «ليس رئيسي الحمد لله» كان جوابه الذي نطقه وهو يضحك. هذا كان كل ما تفوه. لكن هناك علاقة بين الرئيس ماكسيل ووادي الرعب».

«سؤال آخر» سأل المفتش ماكدونالد: «التقيت بالسيد دوغلاس في لندن، وقد تمت خطوبتكما وزواجكما هناك، لا؟ هل كان هناك أية قصة رومانسية، أي شيء غامض أو سري حول زواجكما؟».

«كان هناك قصة حب رومانسية. هناك دوماً رومانسية بقصص الزواج. لكن لم يكن من شيء غامض».

«لم يكن له أي منافس؟».

«كلا، كنت حرّة تماماً».

«لقد عرفت دون شك باختفاء خاتم زفافه. هل يعني هذا أي شيء لك؟ لنفترض أن أحد أعداءه من الماضي قد لاحقه إلى هنا وارتكب جريمته، فما هو السبب الذي سيدفعه لسرقة خاتم الزفاف خاصته؟» للحظة أستطيع أن أقسم أن طيف ابتسامة ظهر على فم السيدة.

«أنا فعلاً لا أعرف» أجابت: «إنها فعلاً نقطة غير عادية».

«لا بأس لن نزعجك لأكثر من هذا، ونحن نأسف لتعريضك للإستجواب بمثل هذه الظروف» قال المفتش: «هناك بعض النقاط الأخرى بالطبع، والتي قد نعود إليك بها لاحقاً».

نهضت ورأيت مجدداً تلك النظرة السريعة المستفسرة داخل عينيها وهي تنقل بصرها بين وجوهنا: «ما هو الإنطباع الذي تركته لديكم مشاهدتي؟» سؤالها الغير منطوق كان قبل أن تغادر الغرفة.

«إنها إمرأة جميلة ـ إمرأة جميلة جداً» قال ماكدونالد بتفكير بعد خروجها: «هذا الرجل بيكر كان يتردد إلى هنا بكثرة دون شك. إنه رجل جذاب بالنسبة للنساء. أعترف أن القتيل كان غيوراً ولربما هو يعرف السبب الذي كان يدفع الزوج للغيرة. ثم هناك خاتم ـ الزفاف. لا نستطيع التغاضي عن ذلك. الرجل الذي ينتزع خاتم الزفاف من إصبع الرجل الميت ـ ما رأيك بهذا سيد بونتي؟».

صديقي كان جالساً ورأسه بين يديه باستغراق كامل بأفكاره. ثم نهض ورن جرس الخدم.

«روجر» قال حين دخل رئيس الخدم: «أين هو السيد بيكر الآن؟».

«سأفتش عنه سيدي».

عاد بعد لحظة ليقول أن السيد بيكر موجود في الحديقة.

«هل تستطيع أن تذكر، روجر، ما الذي كان ينتعله السيد بيكر بقدميه ليلة البارحة حين دخلت وإياه إلى غرفة المكتب؟».

«أجل، سيد بونتي، كان ينتعل زوجاً من خفين للنوم. أحضرت له حذاؤه حين خرج ليخبر الشرطة».

«أين هما الخفين الآن؟».

«إنهما تحت الكرسي في غرفة البهو».

«جيد جداً، روجر، من المهم أن نعرف أية آثار هنا تعود للسيد بيكر وأيهم تعود للدخيل».

«أجل، سيدي. أستطيع القول إنني لاحظت وجود بعض بقع الدم على أسفل الخفين ـ وهذا ما حصل للخفين خاصتي في الواقع».

«هذا طبيعي كفاية، نظراً لحالة غرفة المكتب، جيد جداً، روجر. سندق الجرس إذا احتجناك مجدداً».

بعد لحظات كنا مجدداً في غرفة المكتب. أنطونيو كان قد أحضر خف السيد بيكر من البهو. كما قال روجر كعب الخفين كان ملطخاً بالدماء.

«غريب» تمتم أنطونيو وهو يقف أمام النافذة ويتفحص الخفين بدقة: «غريب جداً بالفعل».

وبلحظة تحرك سريع من لحظاته الذكية طابق الخف مع بقعة الدم الموجودة على حافة النافذة وانطبق الخف مباشرة على البقعة. إبتسم صديقي بصمت لزملائه.

ظهر الإهتمام الكبير على وجه المفتش ماكدونالد وصاح: «يا رجل، لا شك في تطابقهما! لقد وضع بيكر علامة الدم على النافذة بنفسه. الأثر كما هو واضح لم يكن لحذاء بكعب وها هو التفسير. لكن ما هي اللعبة سيد بونتي ـ ما هي اللعبة؟».

«أجل، ما هي اللعبة؟» كرر صديقي بتفكير.

قهقهة المفتش وايت وفرك يديه ببعضهما برضى.

«لقد قلت إنها مكيدة» صاح: «وهي مكيدة حقيقية فعلاً».

الفصل السادس

ضوء فجري

كان أمام المحققين الثلاثة الكثير من الأمور التي تحتاج للتحقيق والإستفسار، ولهذا فقد عدت بمفردي إلى فندقنا المتواضع، ولكن قبل ذلك قمت بجولة على الحديقة المحيطة بالمنزل. الحديقة كانت رائعة الجمال بصف أشجار الصنوبر المحيطة بها والديكورات المتنوعة لأحواض الزهور. كل شيء هنا كان يوحي بالسلام والاطمئنان وحاولت الإنخراط بهذا حتى أهدأ من أعصابي المضطربة من جراء رؤيتي للجثة الممدة فوق وفيما أنا أتجول بالحديقة رأيت شيئاً أعادني فوراً إلى قضية الجريمة وترك انطباعاً عميقاً داخل عقلي.

قلت أن صفاً من أشجار الصنوبر يحيط بالحديقة ونحو نهايتها ومن الطرف الأبعد للمنزل كانت الأشجار متكاثفة وكثيرة كالسور الطبيعي. فيما أنا أقترب من ذلك المكان وصل إلى مسامعي أصوات تتحدث، تعليق ما بصوت رجولي تلته ضحكات نسائية ناعمة وخافتة. بعد لحظة كنت قد درت حول السور الطبيعي للأشجار ووقع نظري على السيدة دوغلاس والسيد بيكر قبل أن ينتبها لوجودي. مظهرها سبب لي الصدمة. بغرفة الجلوس كانت متماسكة وباردة. الآن كل التظاهر بالحزن قد تبخر من

ملامحها. عيناها كانتا تلمعان بضوء الحياة ووجهها لا يزال يرتعش بابتسام للتعليق الذي قاله لها رفيقها للتو. كان يجلس قربها يديه متماسكتين وذراعيه على ركبتيه وعلى وجهه الوسيم إبتسامة ساحرة. بلحظة ـ لكنها كانت لحظة بعد فوات الأوان ـ إستعادا قناعيهما حين رأوني. كلمة سريعة مرت بينهما ثم نهض بيكر واقترب مني.

«عفواً سيدي» قال: «لكن هل أنا أخاطب الطبيب واكسون؟» انحنيت ببرود واضح أظهر الإنطباع السيء الذي تركته رؤيتهما علي.

«لقد اعتقدنا إنك هو لأن صداقتك بالسيد بونتي معروفة ومشهورة. هل تمانع بالإقتراب والتحدث مع السيدة دوغلاس للحظة؟».

تبعته بوجه ممتعض. حييت السيدة بتحفظ. لقد حزنت لحزنها في غرفة الجلوس. الآن قابلت عيونها المتوسلة بعدم تجاوب.

«أخشى إنك تعتبرني إمرأة متحجرة القلب وبلا إحساس؟» قالت.

هززت كتفي.

«هذا ليس من شأني» أجبت.

«لربما ستنصفني في يوم ما. لو إنك فقد تدرك ـ».

«لا داعي ليدرك الطبيب واكسون أي شيء» قاطعها بيكر فوراً: «كما قال هو بنفسه هذا ليس من شأنه».

«بالضبط» قلت: «ولهذا فسأعتذر منكم لأتابع جولتي».

«لحظة حضرة الطبيب» صاحت المرأة بصوت متوسل: «هناك سؤال تستطيع وحدك الإجابة عليه دون كل العالم أجمع قد يشكل هذا فرقاً كبيراً لدي. أنت تعرف السيد بونتي وعلاقته بالشرطة أكثر من أي شخص آخر. لو افترضنا أن مسألة ما قد قدمت إليه من باب الثقة والسرية، هل من الضروري أن يسرد هذه المسألة على أصدقائه التحريين؟».

«هذا صحيح» أجاب بيكر فوراً: «هل هو يعمل لحسابه أم إنه معهم تماماً؟».

«أنا حقاً لا أعرف إن كان يحق لي أن أتناقش بهذا السؤال».

«أتوسل إليك ـ أتوسل إليك أن تفعل، حضرة الطبيب واكسون، أؤكد لك إنك ستساعدنا بهذا كثيراً ـ ستساعدني كثيراً إذاً أرشدتنا بهذ النقطة».

كان هناك صدق وتوسل بصوتها مما دفعني لتناسي ما رأيته منذ لحظات وودت مساعدتها.

«السيد بونتي محقق مستقل» قلت: «إنه سيد نفسه، وسيعمل وفقاً لمفاهيمه الخاصة، وبنفس الوقت سيشعر بالولاء للمفتشين الذين يعملون معه بنفس القضية، ولن يخفي عنهم أي شيء قد يساعدهم على كشف مرتكب الجريمة. أكثر من هذا لا أستطيع أن أضيف أي شيء، وسأطرح المسألة على السيد بونتي إذا رغبتما بذلك».

قلت هذا ونهضت من مكاني وابتعدت حين استدرت رأيتهما لا يزالان يتحدثان مع بعضهما البعض وينظران نحوي فلا شك أن موضوع الحديث كان مقابلتنا هذه.

«لا أرغب بثقتهما» قال صديقي حين أخبرته ما حدث بعد عودته إلى الفندق: «لا أريد ثقتهما، كارلوس، لأن المسألة قد تكون محرجة إذا وصل الأمر إلى الإعتقال بتهمة التآمر والقتل».

«أتعتقد أن الأمر قد وصل إلى ذلك؟».

«يا عزيزي كارلوس، حين أنتهي من طعامي سأعطيك لمحة عن القضية بأكملها. لا أقول أننا قد حللنا كل العقد ـ لكن حين لاحقنا وزن الرياضة المفقود ـ».

«وزن الرياضة! الدمبل!». Dumbell.

«يا عزيزي كارلوس هل من الممكن أنه لم يخطر ببالك أن القضية كلها تتعلق بالدمبل المفقود؟ لا بأس، لا بأس، لا داعي لتظهر التكدر والانزعاج، فالكلام بيننا، كلا المفتشين لم يعرفا ذلك أو يشكا بأهمية هذا الحدث التافه. تصور المنحنى الذي ستأخذه الأحداث ـ الخطر الدائم بكسر وعطب العامود الفقري بشيء صادم! كارلوس! صادم».

راقبته وهو يتابع طعامه بشهية وأدركت أنه قد وصل إلى النجاح بقضيته وانتظرت بصبر إلى أن انتهى ليعطيني التفاصيل.

«إنها كذبة كارلوس ـ كذبة كبيرة مشينة غير معقولة ـ هذا ما يقابلنا بهذه القضية. هذه هي نقطة انطلاقنا. كل القصة التي ذكرها بيكر كانت كذب بكذب. لكن قصة بيكر قد سبكتها السيدة دوغلاس. ولهذا فهي بدورها تكذب. كلاهما يكذبان وكلاهما مسترك بالمؤامرة. ولهذا الآن أمامنا مشكلة واضحة ـ لماذا يكذبان، وما هي الحقيقة التي يحاولان بلهفة أن يخفيانها؟ لنحاول كارلوس، أنا وأنت، إذا كان بإمكاننا اختراق الكذبة وإعادة رسم الحقيقة.

«كيف تعرف أنهما يكذبان؟ لأنها حبكة تافهة من غير الممكن أن تكون حقيقية، أعتبر! حسن القصة التي أعطونا إياها أن مرتكب الجريمة كان أمامه دقيقة واحدة فقط لينتزع خاتم الزواج الذي كان أسفل خاتم آخر، من يد الرجل الميت، وأن يعيد الخاتم الآخر إلى مكانه ـ شيء ما كان ليفعله المجرم مطلقاً ـ وأن يضع تلك البطاقة بجانب الجثة. أقول أن هذا كان مستحيلاً. قد تجادل ـ وأنا متأكد إنك لن تفعل ـ إن الخاتم قد انتُزع قبل موت الرجل. حقيقة الشمعة التي لم يمضِ على إضاءتها فترة طويلة تؤكد أن المقابلة بين القاتل والقتيل لم تكن مطولة. هل دوغلاس، الرجل الذي سمعنا عن جرأته وشجاعته سيسلم خاتم زفافه بلحظات قصيرة وهل تأكدنا أنه قد استغرق عنه منذ البداية؟ كلا، كلا، كارلوس. القاتل كان

برفقة القتيل لبعض الوقت والمصباح مضاء. بهذا ليس عندي أي شك. لكن من الواضح أن طلقات السلاح كانت سبب الوفاة. إذن فالطلقات قد صدرت قبل وقت طويل مما أخبرونا به. لكن لا يوجد خطأ حول هذه القضية. نحن في الحاضر، الآن، نتحدث عن مؤامرة بين الأشخاص الذين سمعوا صوت الطلقات بين الرجل بيكر والمرأة دوغلاس. وحين اكتشفت فوق كل ذلك أن بقع الدم على النافذة كانت متعمدة حتى يعطي بيكر تلميحاً خاطئاً للشرطة. سنعترف أن القضية تلتف حوله.

الآن علينا أن نسأل أنفسنا متى وصلت الجريمة حقاً. حتى الساعة العاشرة والنصف كان الخدم لا يزالون يتجولون داخل المنزل إذن بالطبع لم تحدث الجريمة قبل هذا الوقت. في الحادية عشر إلا الربع خلد الجميع إلى فراشهم باستثناء روجر الذي كان في الحديقة الخلفية. أُجريت بعض التجارب بعد رحيلك ووجدت أنه مهما أصدر ماكدونالد من ضجة داخل غرفة المكتب فلم أتمكن أن أسمعها أنا من الحديقة إذا ما كانت الأبواب مغلقة. الأمر يختلف بالنسبة لغرفة مدبرة المنزل. فهي ليست بعيدة عن غرفة المكتب ومن غرفتها إستطاعت سماع صوت خافت حين أصدر ماكدونالد صوت ضجة عالي جداً من غرفة مكتب. صوت الطلقات حين تصدر من مكان قريب من الهدف يبدو مكتوماً قليلاً. وهكذا فصوت الطلقات لم يكن عالياً جداً ولكن بالسكون الذي كان مسيطراً على المنزل فلا شك أن الصوت قد وصل إلى غرفة المدبرة لكنها، كما قيل لنا، شبه صماء أو ضعيفة السمع، لكنها ذكرت بشهادتها إنها سمعت صوت كصوت إنصفاق الباب قبل نصف ساعة من صدور جرس الإنذار. قبل نصف ساعة من إطلاق الإنذار أي الساعة الحادية عشر إلا الربع. لا شك عندي أن ما سمعته كان صوت إطلاق النار، وإنه بهذا الوقت الذي ذكرت حدثت الجريمة، إذا كان هذا صحيحاً، فعلينا معرفة مكان تواجد السيد بيكر والسيد دوغلاس. إفتراضاً إنهما ليسا

المجرمين، في الساعة الحادية عشر إلا الربع. حين أحضرهما صوت الطلقات إلى الطابق السفلي، حتى الساعة الحادية عشر والنصف لحظة أن دق السيد بيكر جرس الإنذار. ما الذي كانا يفعلانه بهذا الوقت الضائع ولماذا لم يدقا جرس الإنذار على الفور؟ هذا هو السؤال الذي يواجهنا وحين نجيب عليه نكون قد قطعنا نصف المسافة نحو حل القضية.

«أنا مقتنع بنفسي» قلت: «إن هناك تفاهماً بينهما الإثنين. لا شك أنها إمرأة بلا قلب لتجلس وتضحك بعد ساعات من موت زوجها بطريقة رهيبة».

«بالضبط، هي لم تبدو كزوجة حتى أدلت بشهادتها. لست معجباً بجنس النساء بشكل عام، كما تعرف كارلوس، لكن خبرتي في الحياة علمتني أن عدداً قليلاً فقط من النساء يقتنعن بكلام أي رجل يحول بينهن وبين رؤيتهن لزوجهن الميت. كان هذا تمثيلاً مسرحياً فاشلاً لأنه حتى أبسط المحققين سيصدم لعدم رؤيته لحزن الزوجة ونحيبها. حتى ولو لم يكن هناك أي علامات أخرى فهذا وحده كان كافياً لإثارة الشكوك حول وجود مؤامرة ما».

«أنت متأكد إذن أن السيد بيكر والسيدة دوغلاس هما المذنبان بهذه القضية؟» سألت.

«هناك صراحة ووضوح مباشر في سؤالك كارلوس» قال صديقي: «لقد أتيا إلي كالرصاصتين. إذا قلت لي أن السيدة دوغلاس والسيد بيكر يعرفان تفاصيل الجريمة لكنهما يخفيانها، فأستطيع حينها أن أعطيك جواباً واحداً. لنفكر الآن بالمصاعب التي تقف بطريقنا. سنفترض أن هاذين الشخصين مرتبطين برابط الحب المذنب وإنهما قد قرروا التخلص من الرجل الذي يقف عقبة بطريقهما. إنه افتراض كبير، لأن إستفسارنا

وتحقيقاتنا مع الخدم لم تؤكد هذا الشيء. على العكس هناك أدلة كثيرة تشير أن آل دوغلاس كانا على علاقة وثيقة وقوية مع بعضهما البعض.

«هذا من غير المعقول أن يكون حقيقياً» قلت وأنا أفكر بذلك الوجه الباسم في الحديقة.

«حسناً، هذا هو الإنطباع الذي كانا يعطياه. على كل حال، سنفترض أنهما شخصين غير عاديين. خدعا كل من حولهما بهذه النقطة وتآمرا على قتل الزوج. كان رجلاً يحوم حول رأسه الخطر ـ».

«عندنا كلمتهم هم فقط بهذه النقطة».

بدا التفكير على أنطونيو:

«أرى كارلوس إنك بدأت تتصور أن كل ما قالاه كان كذباً. بالنسبة لك لا يوجد أية جمعية سرية ولا أي خطر مخفي ولا وادي رعب والرئيس ماكسويل أو أي شيء آخر. لا بأس، لنفترض أن ما تقوله صحيحاً. لنرى إلى ماذا يوصلنا هذا. إخترعا هذه القصة عن الجريمة. ثم استمرا بلعبتهما بتركهما لتلك الدراجة في الحديقة. البقعة على النافذة تنقل نفس الفكرة. كذلك الأمر مع البطاقة، كل هذا يتناسب مع تصورك كارلوس. والآن نصل إلى الزاوية الشريرة. قطع صغيرة لا تلائم مكان وجودها. لماذا السلاح المدوي من بين كل أنواع الأسلحة ـ ونوع أمريكي بالذات؟ كيف تأكدا أن صوت الطلقات القوي لن يسمع ويجلب أحد الخدم إلى مكان الجريمة؟ إنها مجرد الصدفة، إن السيدة آلين لم تغادر غرفتها لتستفسر حول سماعها لصوت الباب المصفوق. لماذا يفعل الشخصين المذنبين برأيك هذا، كارلوس؟».

«أعترف إنني لا أملك أي تفسير لهذا».

«إذن، مجدداً، إذا خططت المرأة وعشيقها لقتل الزوج، هل سيعلنان بوضوح عن ذنبهما وفعلتهما بإخفائها لخاتم الزفاف بعد موته؟ هل تجد

هذا غير منطقياً كارلوس؟».

«أجل إنه كذلك».

«ومجدداً، إذا خططت المرأة وعشيقها لقتل الزوج، هل سيعلنان بوضوح عن ذنبهما وفعلتهما وبإخفائهما لخاتم الزفاف بعد موته؟ هل تجد هذا غير منطقياً كارلوس؟»

«أجل إنه كذلك».

«ومجدداً، إذا كانت فكرة الدراجة المخفية في الحديقة قد خطرت ببالك، هل ستستحق هذه الفكرة التنفيذ رغم المعرفة البسيطة أن أغبى المحققين سيجد بهكذا تصرف غباءاً وعملاً لتضليل العدالة نظراً لأنه لن يتمكن من استعمال هذه الوسيلة بالهروب بعد رفع الجسر؟»

«لا شرح عندي أيضاً».

«لكن لا يوجد أي صلة لا يستطيع العقل البشري أن يصل إليها. كمجرد نشاط عقلاني فقط. دعني إذن أعطيك خطأً ممكناً من التفكير. كل ما أقوله وأعترف أنه مجرد خيال ولكن الخيال هو أصل الحقيقة معظم الأحيان: سنفترض أنه كان هناك سر مذنب، سر مشين فعلاً. بحياة الرجل المدعو دوغلاس. هذا يؤدي إلى الجريمة التي يرتكبها المنتقم المجهول ـ شخص من خارج المنزل. هذا المنتقم ولسبب أعترف إنني لا أزال أجهله، يأخذ خاتم زفاف دوغلاس. التاريخ قد يعود إلى زواجه الأول ولربما قد أخذ منه لنفس السبب. قبل هروب المنتقم وصل بيكر والزوجة إلى الغرفة. المجرم أقنعهم إن أي محاولة لاعتقاله ستؤدي إلى كشف فضيحة مخفية. اقتنعا بهذه الفكرة وفضلا إطلاق سراحه. لهذا السبب لربما قد أنزلا له الجسر، الشيء الذي يتم بدون أي ضجة، ثم رفعاه مجدداً. هرب الفاعل. ولسبب ما رأى أنه من الأمن الهروب سيراً على الأقدام وليس باستعمال الدراجة. ولهذا فقد ترك دراجته في المكان

الذي لن يكتشف إلا بعد وصوله إلى بر الأمان. على كل حال نحن لا نزال ضمن مجال الأحتمالات، لا؟».

«لا بأس، هذا ممكناً، بدون شك» قلت بتحفظ.

«علينا أن نتذكر كارلوس. إنه مهما كان ما حدث فقد حدث بطريقة غير عادية. حسناً الآن، لنتابع سلسلة إفتراضاتنا ـ الشخصين ـ ليس من الضرورة أن يكونا مذنبين ـ أدركا بعد هروب المجرم إنهما قد وضعا أنفسهما بموقع محرج حيث سيكون من الصعب عليهما برهنة عدم اشتراكهما بالجرم أو ارتكابهما له. بسرعة وبغباء خططا. وضع بيكر الدم على النافذة ليوهم الشرطة بأن المجرم هرب عبر النافذة. لا شك أنهما وحدهما من سمع صوت الطلقات ولكنهما أطلقا الإنذار بعد نصف ساعة من حدوث الجريمة».

«وكيف تنوي أن تبرهن كل ذلك؟»

«إذا كان هناك دخيل فإننا سنتبع أثره دون شك. هذا سيكون أفضل البراهين. لكن إذا لم تنجح ـ لا بأس مصادر العلم ليست مرهقة. أظن أن أمسية هادئة لي بمفردي بذلك المكتب ستعطيني الكثير».

«أمسية بمفردك؟».

«أقترح أن أذهب إلى هناك مباشرة. لقد دبرت هذا مع روجر، إنه غير مرتاح تماماً لبيكر. سأجلس بتلك الغرفة وأرى ماذا سيعطيني جوها من إيحاءات. أنت تبتسم كارلوس، لا بأس، سنرى. على فكرة، لا زلت تملك تلك المظلة الكبيرة لا؟».

«إنها هنا».

«لا بأس، سأستعيرها، إذا سمحت لي».

«بالتأكيد ـ لكن يا له من سلاح فقير! إذا واجهك أي خطر ـ».

«لا شيء جدي يا عزيزي كارلوس، وإلا لكنت استعنت بمساعدتك

لكني سآخذ المظلة. في هذا الوقت أنا بانتظار عودة زملائي من المحال التي تبيع الدراجات».

حل الظلام قبل وصول المفتشان مادكونالد ووايت من رحلتهما، ووصلا مرهقين بأخبار طيبة وجيدة لتحقيقنا.

«يا رجل أعترف إنني كنت أشك بوجود دخيل من الخارج» قال ماكدونالد: «لكن كل هذا أصبح من الماضي الآن. لقد حددنا مكان شراء الدراجة وحصلنا على أوصاف الرجل وهكذا فقد خطونا خطوة كبيرة».

«تبدو هذه بداية النهاية» علق صديقي: «أنا أهنأكما سوياً من أعماق قلبي».

«حسناً، لقد بدأت بحقيقة أن السيد دوغلاس كان مضطرباً ومتوتراً في اليوم السابق للجريمة، حين كان يتسوق. وهناك في السوق أدرك بوجود الخطر حوله. فكان من المنطقي أنه إذا حضر الرجل على الدراجة فلا شك أنه حضر من سوق نونبردج بالذات. أخذنا الدراجة معنا وعرضناها على كل الفنادق. تعرف عليها مدير فندق إيغلز وقال أنها تعود إلى رجل يسمى هارفي كان قد استأجر غرفة قبل يومين عنده. هذه الدراجة وحقيبة صغيرة كانا كل ممتلكاته. سجل إسمه على إنه قادم من لندن، لكنه لم يسجل أي عنوان. لكنة الرجل كانت أميركية واضحة.

«حسن، حسن». قال صديقي بمرح: «لقدقمت بعمل رائع وأساسي، سيد ماك، ألم يكن هناك أية علامات فارقة لهذا الرجل؟».

«القليل جداً فقط ومن الواضح إنه كان حريصاً ومتكتماً على هويته. لم يكن هناك أية علامات أو أوراق على ملابسه. خريطة للمنطقة كانت موجودة على طاولته. كان قد ترك الفندق بعد الفطور صباح البارحة على دراجته، ولم يسمع أي شيء عنه بعد ذلك».

«هذا ما يحيرني، سيد بونتي» قال وايت: «لو أن الرجل لم يكن يريد إثارة الشكوك حوله لكان عاد إلى الفندق وبقي فيه كأي سائح عادي. لكنه وبهذه الحالة أدرك أن الشرطة ستجد الدراجة وتلف بدورها على الفنادق وأن اختفاءه سيرتبط بحدوث الجريمة».

«هذا ما قد يتخيله البعض. لكنه ذكي حتى الآن لأنه لم يقع بيد العدالة بعد. لكن أوصافه ـ كيف هي؟».

عاد ماكدونالد إلى دفتر ملاحظاته.

«هذا هو الوصف الذي حصلنا عليه. كان بطول متوسط، بعمر الخمسين أو مايقارب ذلك، شعره رمادي قليلاً، وشارب رمادي. أنف معقوف ووجه قاسي الملامح ومتصلب».

«يا له من وصف إنه يكاد ينطبق على وصف السيد دوغلاس نفسه» قال صديقي: «إنه بنفس العمر بشعر وشارب رمادي وبنفس طول القامة. هل توصلت لأي شيء آخر؟».

«كان يرتدي بذة رمادية ومعطف طويل وقبعة صغيرة».
«ماذا حول البندقية؟».
«إنها متوسطة الطول ويستطيع بكل سهولة أن يخفيها تحت معطفه»
«وكيف تتخيل سيساعدنا هذا بقضيتنا؟»

«حسناً سيد بونتي» قال ماكدونالد: «حين نقبض على رجلنا ـ وتأكد إننا سنفعل لأنني أرسلت برقية بأوصافه لكل دوائر الشرطة ـ سنتمكن من الإجابة على هذا السؤال. لكن حتى هذه النقطة فنحن قد قطعنا شوطاً بالقضية. نعرف أن شخصاً أميركياً يدعو نفسه هارفي وصل إلى نونبرج قبل يومين بدراجته. كان يحمل معه سلاح قاتل ولهذا فمجيئه إلى هنا كان بقصد القتل المتعمد. البارحة إنطلق إلى هدفه وسلاحه مخبأ تحت معطفه. لم يراه أحد يصل، حسب علمنا، وحتى ولو مر عبر القرية فلن

يتنبه له أحد لأن هناك كثير من الدراجين فيها. وصل وأخفى دراجته في الحديقة ورأى الجسر يرتفع فأدرك إن هروبه الوحيد سيكون عبر النهر. إنتظر حتى الساعة الحادية عشرة والنصف. إلى أن وصل دوغلاس إلى غرفة المكتب بجولته الليلية المعتادة. أطلق النار عليه وهرب كما هو مخطط. أدرك أن مدير الفندق والعمال سيتعرفون عليها وسيكون هذا دليلاً ضده، فتركها مكانها وعاد إلى لندن بوسيلة نقل أخرى أو ذهب إلى مكان آمن آخر كان قد دبره من قبل. ما رأيك سيد بونتي؟».

«حسناً، سيد ماك، إنه تصور جيد وواضح كما تسرده. تلك هي نهاية قصتك، نهايتي هي أن الجريمة قد تمت قبل نصف ساعة من الوقت الذي حددته قصتك، أن السيدة دوغلاس والسيد بيكر متآمران على إخفاء بعض الأمور المتعلقة بمقتل السيد دوغلاس، أو إنهما قد ساعدا مرتكب الجريمة على الفرار ـ أو على الأقل إنهما قد وصلا إلى الغرفة قبل هروبه ـ إنهما قد دبرا وضع أدلة عن هروبه عبر النافذة بينما الإحتمال الأصح هو إنهما ساعداه على مغادرة المنزل بإنزالهما للجسر ثم رفعه بعد وصوله إلى الضفة المقابلة. هذه قراءتي للنصف الأول».

المحققين هزا رأسيهما.

«حسناً، سيد بونتي، إذا كان ما تقوله صحيحاً فهذا يعني إننا قد انتقلنا من لغز إلى آخر». قال ماكدونالد.

«وبطريقة ما اللغز الثاني أسوأ من الأول» أضاف وايت: «لم يسبق للسيدة إن ذهبت إلى أميركا في حياتها كلها. ما الصلة التي قد تكون بينها وبين قاتل أمريكي لتسمح له بالهروب؟».

«أنا أعترف بوجود العديد من المصاعب» قال صديقي: «أنوي القيام بتحقيق خاص بنفسي هذه الليلة، وقد أتمكن من التوصل إلى تفسير منطقي لهذا السبب».

«هل نستطيع مساعدتك، سيد بونتي؟».

«كلا، كلا، الظلام ومظلة الطبيب كارلوس. مطاليبي بسيطة. وروجر ـ روجر المخلص ـ لا شك إنه سيساعدني. كل خطوط أفكاري تقودني إلى السؤال الأساسي الأوحد ـ لماذا يحاول رياضي المحافظة على لياقته الجسدية باستعمال آلة غير طبيعية كالدامبل الواحدة؟»

كان الوقت متأخراً حين عاد أنطونيو إلى غرفتنا من جولته المنفردة. كنت غارقاً بالنوم لكني استيقظت على صوت وصوله.

«لا بأس، أنطونيو» تمتمت: هل توصلت إلى أي شيء؟».

وقف بجانبي بصمت وشمعته بين يديه ثم إنحنى بقامته الطويلة نحوي.

«أقول كارلوس»، قال بهمس: « هل ستشعر بالخوف من النوم في غرفة واحدة مع شخص مجنون، مختل عقلياً وغير متحكم بأعصابه؟»

«لا أبداً» أجبته بذهول.

«آه، هذا مصدر حظ»، قال ولم ينطق أي كلمة أخرى تلك الليلة.

الفصل السابع

الحل

صباح اليوم التالي وجدنا المفتشين ماكدونالد ووايت جالسين في القاعة الصغيرة داخل مركز الشرطة. أمامهما على الطاولة كان هناك كومة من الرسائل والبرقيات، كانوا يصنفونها ويتفحصونها. ثلاثة أوراق كانت موضوعة على جانب واحد.

«ألا تزالون تلاحقون صاحب الدراجة؟» سأل أنطونيو بمرح: «ما هي آخر أخبار الهارب؟».

أشار ماكدونالد إلى كومة الأوراق أمامه.

«هو شوهد في لايسيستر، نوتنغهام، ساوثمبتون، ديربي، إيستهام، ريشموند وبأربعين مكاناً آخر. بثلاثة من هذه الأماكن ـ إيستهام لايسيستر وليفربول ـ كان هناك حكماً ضده وقد اعتقل فعلاً. يبدو أن البلاد ممتلئة باللاجئين ذوي المعاطف الطويلة».

«يا إلهي» قال صديقي بتعاطف: «والآن، سيد ماك وسيد وات، أريد أن أعطيكم نصيحة ذهبية. حين شاركت بهذه القضية معكما، وعدت كما تتذكران، بعدم إعطاءكما أنصاف نظريات، ولهذا بهذه اللحظة لن

أعطيكما كل ما يدور برأسي. من ناحية أخرى، قلت لكما إنني سأتشارك بعدل معكما ولا أظن أنه من العدل السماح لكما بتضييع وقتكما بعمل غير منتج. ولهذا أنا هنا لأنصحكم هذا الصباح ونصيحتي لكما تتلخص بكلمتين: أتركا القضية».

حدق المفتشان بزميلهما بعدم تصديق.

«تعتبر القضية ميؤوس منها؟» صاح ماكدونالد.

«أعتبر قضيتكم ميؤوس منها. لا أعتبر إنه من اليأس التوصل إلى الحقيقة».

«لكن هذا الدراج. إنه ليس اختراع. معنا أوصافه، حقيبته، دراجته. الشخص موجود في مكان ما. لم لا نحاول القبض عليه؟».

«أجل، أجل. لا شك أنه في مكان ما ولا شك أننا سنقبض عليه، لكني لا أريدكما أن تضيعا وقتكما في إيستهام أو ليفربول. أنا واثق أن أمامنا طريقاً مختصراً للوصول إلى النتائج».

«أنت تخفي عنا شيئاً. هذا ليس عدلاً منك سيد بونتي» قال المحقق بانزعاج.

«تعرف أساليبي بالعمل سيد ماك، لكني سأخفي بعض الأمور عنكم لفترة قصيرة فقط. أنا فقط آمل ببرهنة تفاصيلي بطريقة أو بأخرى، وبأقصر وقت ممكن بعدها أودعكم وأعود إلى لندن. تاركاً نتائجي بتصرفكم. أنا أدين لكم بالكثير لأتصرف بطريقة أخرى، لأنه بكل قضاياي السابقة لم أمر بقضية مثيرة ومميزة مثل هذه».

«لا أستطيع أن أفهم هذا سيد بونتي. لقد رأيناك لدى عودتنا من نونبرج ليلة البارحة وكنت موافقاً على نتائجنا. ما الذي حدث بعد ذلك وأعطاك فكرة جديدة تماماً عن هذه القضية؟»

«حسناً، طالما إنك قد سألتني، فقد قضيت البارحة بعض الساعات داخل منزل آل دوغلاس».

«حسناً. وماذا حدث بعذ ذلك؟».

«آه! أستطيع فقط أن أعطيكما رداً عاماً على هذا السؤال بهذا الوقت. على فكرة كنت إقرأ تقريراً موجزاً وبسيطاً حول ذلك البناء الذي اشتراه أولاً أحد تجار التبغ في المنطقة بسعر بخس» تناول من جيبه صورة للبناء وتابع: «هذا يضفي على التحقيق المتعة. عزيزي ماك، حين تسترجع اللمحة التاريخية الخاصة بالمكان. لا تبدون قليلي الصبر لأني أؤكد لكم أنه مجرد السرد التاريخي يعطيك تصوراً عن الماضي. سأبدأ بسرد بعض الأحداث التاريخية المتعلقة بالمنزل فقد زاره الأمبراطور جورج الثاني وكان مسكن أحد الكولونيالات المسمى شارلز عام 1644. قبيل الحرب الأهلية»

«سيد بونتي، أنا أحترم كثيراً كل ما تقول لكن أرجوك إقترب من نقطتك بطريقة مباشرة وليس باللف حول الزاوية» قال ماكدونالد: «آه! آه! عزيزي ماك، ها هو مزاجك السيء يظهر للمرة الأولى، لا بأس لا بأس. سنترك الماضي ونتحدث عن الحقائق الحاضرة. لقد ذهبت ليلة البارحة إلى منزل آل دوغلاس. كما قلت، لم أقابل لا سيد بيكر ولا السيدة دوغلاس، لم أرَ داعي لإزعاجهما، لكني سررت حين سمعت أن السيدة لم تكن تتأوه أو تنتحب على وفاة زوجها وأنها قد تناولت وجبة دسمة وبشهية على الغداء. زيارتي كانت مخصصة للعجوز روجر الطيب، والذي تبادلت معه بعض الأحاديث سمح لي بنهايتها بالدخول إلى غرفة المكتب والبقاء بداخله لبعض الوقت دون أن يطلع أحد على ذلك».

«ماذا، ماذا فعلت؟» سألته بذهول.

«كلا، كلا، كل شيء الآن على حاله قبل الجريمة. فقد أعيد كل

شيء إلى مكانه الطبيعي وقد قضيت بالداخل نصف ساعة خلاّقة».

«ما الذي كنت تفعله؟».

«حسناً، لأبسط الغموض أقول إنني كنت أبحث عن الدمبل الثاني هذه الأداة الرياضية كان لها أهمية كبرى بحقيقي للقضية. وانتهيت بإيجادي له».

«أين؟».

«آه، هنا نصل إلى حافة الغير مكتشف. دعني أستمر بالحديث القليل بعد وسأعدكم إنكم ستشاركوني بكل ما أعرفه».

«لا بأس نحن مضطرون للعمل وفق معاييرك» قال المفتش: «لكن حين يصل الأمر إلى الطلب منا التخلي عن القضية ـ لماذا، بحق الله علينا ترك القضية؟»

«للسبب البسيط، يا عزيزي ماك، إنه ليس عندكم أدنى فكرة عمّا هي القضية التي تحققون بها».

«نحن نحقق بقضية قتل السيد جون دوغلاس من بيرلستون»،

«أجل، أجل، هذا صحيح. لكن لا تزعجوا أنفسكم بملاحقة الرجل الغامض صاحب الدراجة، أؤكد لكم أن هذا لن يساعدكم».

«إذن ماذا تقترح أن نفعل؟».

«سأقول لكم بالضبط ماذا عليكم أن تفعلوا إذا وافقتم على ذلك».

«لا بأس، لطالما أدركت أن هناك منطق خلف أساليبك الغريبة. ولهذا فسأنفذ ما تطلبه».

«وماذا عنك، سيد وايت؟»

نظر المحقق وايت من أحدهما إلى الآخر بعجز. السيد بونتي وأساليبه كانت جديدة بالنسبة إليه.

«حسناً، ما دام المفتش ماكدونالد موافق على ذلك فأنا بدوري لن أفعل إلا مثله».

«ممتاز» قال أنطونيو: «حسناً، إذن سأعطيكم نصيحة بالقيام بجولة في الهواء المنعش. يقولون لي أن المنظر من جسر بيرلستون رائع. لا شك أن تناول الغداء في مطعم صغير سيكون أمراً ممتعاً، في المساء، رغم التعب ستكونان سعيدان ـ».

«يا رجل تبدو هذه مثل مزحة» صاح ماكدونالد ونهض من مكانه بغضب.

«لا بأس، لا بأس، أقضوا النهار كما تريدون» قال أنطونيو مُربتاً على كتف المفتش بمرح: «إفعلا ما يحلو لكما واذهبا إلى المكان الذي ترغبان به، لكن لاقياني هنا قبل المغيب ـ قبل المغيب، سيد ماك».

«هذا يبدو أكثر تعقلاً».

«كانت نصيحة ذهبية فعلاً، لكني لا أصر على ذلك طالما إنكما ستكونان هنا قبيل المغيب. لكن الآن، قبل رحيلكما، أريد أن ترسلا ملاحظة للسيد بيكر».

«أجل؟».

«سأمليها عليكم إذا أحببتم. مستعد؟» تابع صديقي قائلاً:

«سيدي ـ لقد خطر ببالي تجفيف البحيرة حول المنزل، على أمل أن نجد ـ»

قال ماكدونالد: «لقد أجريت استفساراتي».

«هش، هش يا عزيزي! إفعل، لو سمحت، إفعل ما أقوله لك».

«حسناً، تابع».

«ـ أي شيء يساعدنا في تحقيقنا. لقد قمت بالترتيبات اللازمة،

والعمال سيبدأون غداً صباحاً بتجفيف البحيرة حول المنزل وكذلك الجدول ولهذا فرأينا إطلاعك مسبقاً على هذا الأمر» والآن وقّع هنا وارسلها إلى السيد بيكر حوالي الساعة الرابعة. بذلك الوقت سنلتقي مجدداً هنا. حتى ذلك الحين إفعلا ما يحلو لكما وسأفعل أنا ما يحلو لي».

وصل المساء أخيراً ووصل المحققين، كان أنطونيو جدياً، أنا فضولياً والمحققان ناقدين ومنزعجين.

«حسناً، حضرة السادة» قال صديقي: «أطلب منكم الآن أن تستمعوا لي جيداً، وستحكمون بأنفسكم على ما توصلت إليه من استنتاجات. الطقس بارد وسأخذكم بجولة اكتشاف طويلة، لذا من الأفضل أن ترتدوا معاطفكم الثقيلة. من المهم جداً أن نكون في مواقعنا قبل حلول الظلام، ولهذا بعد إذنكم، سننطلق فوراً».

مشينا نحو منزل آل دوغلاس ونحن نسير خلف أنطونيو ودخلنا المكان ثم اختبأنا خلف سور من النباتات والأشجار المطلة مباشرة على مدخل المنزل والجسر المتحرك. الجسر كان لا يزال منزلاً.

«إذن، ما الذي سنفعله الآن؟» سأل ماكدونالد.

«نسلي أنفسنا بالصبر ونصدر أقل ضجة ممكنة» أجاب أنطونيو.

«لماذا نحن هنا من الأصل؟ أرى أن عليك معاملتنا ببعض الوضوح».

ضحك صديقي.

«كارلوس يصر أنني كاتب الدراما بهذه الحياة» قال: «شيء فني ما بداخلي يدفعني لتطبيق العرض المسرحي الكامل. بالطبع عملنا، سيد ماك، سيكون جافاً ومملاً إذا لم نجهز عروضاً تذهلنا بنتائجها. الآن عليك الإنتظار بترقب الصياد المنتظر لفريسته. أين سيكون هذا الترقب المشوق إذا أعطيتكم كل شيء؟ أطلب منكم فقط بعض الصبر. سيد ماك،

وسيتضح كل شيء لكم».

«حسناً، أتمنى أن نصل إلى النتائج المذهلة التي تقول عنها قبل أن نموت من البرد» قال ماكدونالد بمرح.

بدأ الظلام ينتشر وخيالات المنزل الضخم أمامنا أخذت تركن أكثر فأكثر.

«كم سيدوم هذا؟» سأل المفتش فجأة: «ما هو الشيء الذي نراقبه؟»

«لا معرفة عندي أكثر منكم عن الوقت الذي علينا الإنتظار به» أجاب صديقي: «لو أن المجرمين يحددون مسار جرائمهم بوقت محدد لهان الأمر علينا جميعاً. أما فيما يتعلق بالشيء الذي ـ آه، ذاك ما نحن بصدد مراقبته».

فيما هو يتحدث ضوء غرفة المكتب أظهر شخصاً بداخله وهو يمشي جيئة وذهاباً. المكان الذي كنا نرابط به كان مواجهاً للنافذة تماماً. بهذا الوقت فتحت النافذة ورأينا رأس وكتفي رجل يطل منها. للحظات حدق عبر النافذة، بدقة كأنه يريد أن يتأكد أن أحداً لا يراقبه. ثم خرج من النافذة، لحظات ورأيناه يقفز إلى المياه، بدا وكأنه كان يفتش أسفل المياه بشيء ما كان يمسكه بيده. ثم فجأة رفع شيئاً ما من المياه كالصياد الذي يلتقط السمكة ـ الشيء كان مستديراً وغير واضح الملامح من مكاننا.

«الآن» صاح أنطونيو «الآن!».

نهضنا فوراً وتبعناه بركضه السريع النشيط، قطعنا الجسر وأخذ أنطونيو يرن على الجرس بقوة. فتح روجر المندهش الباب فأزاحه أنطونيو فوراً وهرع نحو غرفة المكتب، فتح الباب ودخلنا وبهر الضوء عيوننا للحظة ثم رأينا وجه بيكر النظيف وعيونه الشريرة.

«وماذا يعني هذا بحق السماء؟» صاح: «عماذا تبحثون على كل

حال؟».

جال أنطونيو بنظره بسرعة حول الغرفة ثم اتجه نحو صرة مبللة كانت على الأرض تحت الطاولة.

«هذا ما نبحث عنه، سيد بيكر، هذه الصرة، المحتوية على الدمبل، والتي رفعتها للتو من المياه».

حدق بيكر بأنطونيو بذهول.

«كيف بحق السماء توصلت لمعرفة ذلك؟» سأل.

«لأنني بكل بساطة قد وضعتها هناك».

«أنت وضعتها هناك؟! أنت؟!».

«لربما كان علي القول إنني قد «استبدلت مكانها هناك» قال أنطونيو: «تذكر، حضرة المفتش ماكدونالد، إنني قد اندهشت لعدم وجود الدمبل الآخر. وقد علقت على ذلك ولكن في خضم الأحداث لم تنتبه إلى هذا الأمر وإلا لكنت توصلت إلى نتائجي نفسها. حين تكون المياه قريبة ووزن ثقيل مفقود فليس من الصعب الإدراك أن الوزن قد استعمل لإخفاء شيء ما تحت المياه. الفكرة على كل حال كانت تستحق التجربة، هكذا وبمساعدة روجر الذي أدخلني إلى الغرفة وبمساعدة مظلة كارلوس استطعت أن اصطاد هذه الرزمة. كان من الأهم الآن معرفة هوية الشخص الذي وضعها هناك. ولهذا فقد أرسلنا الملاحظة بتجفيف المياه وهكذا الشخص الذي أخفى الصرة فسيحاول الحصول عليها وتغيير مكانها. وسيقوم بهذا تحت جنح الظلام طبعاً ولهذا فالكلمة الآن للسيد بيكر».

وضع أنطونيو الرزمة على الطاولة وفتحها. تناول منها أولاً الدمبل الذي أبقى الصرة أسفل المياه. ثم تناول زوج من الأحذية الأميركية. ثم تناول منها سكيناً ضخماً قاتلاً. ثم تناول رزمة من الملابس، ملابس داخلية سترة رمادية معطف طويل وقبعة صغيرة.

«الملابس عادية» قال صديقي: «باستثناء المعطف المليء بالكثير من العلامات الموحية» قرب المعطف من الضوء: «هنا الجيب الداخلي كبير وطويل حتى يتسع للسلاح القاتل. عنوان الخياط على الرقبة ـ نيل، فيرميسا فالي، الولايات الأميركية المتحدة، أجريت بعض الإستفسارات وأدركت أن فيرميسا فالي هو إسم بلدة صغيرة أولى في وادي الفحم والمناجم في الولايات المتحدة الأميركية. أذكر، سيد بيكر، إنك قد ذكرت أن زوجة السيد دوغلاس الأولى كانت من تلك المنطقة، فاستنتجت أن حرفي ف. ف.» على البطاقة قرب الجثة تعني فيرميسا فالي، أو أن هذا الوادي هو نفسه الذي كان يسميه دوغلاس وادي الرعب. هذا واضح كفاية، والآن، سيد بيكر، يبدو إنني أقف بطريق شرحك سيد بيكر».

كان من المذهل مراقبة تغيير ملامح وجه بيكر. الغضب، الذهول، الإحباط، والتصميم ظهر بالتالي على وجهه. ثم أخيراً أخذ وجهه قناع السخرية الصلب.

«تعرف كل هذا، سيد بونتي، لربما عليك إطلاعنا على المزيد» قال بسخرية: «لا شك عندي إنني أستطيع إخباركم بالمزيد، سيد بيكر، لكن الأمر سيكون أفضل إذا صدر منك».

«آه، أنت تعتقد ذلك، أليس كذلك؟ لا بأس، كل ما أستطيع قوله بهذه الحالة إنه إذا كان هناك أي سر فهو ليس سري ولست أنا من أخفيه».

«لا بأس، إذا سرت على هذا الخط، سيد بيكر» قال المفتش بهدوء: «فسنبقيك تحت نظرنا حتى نحصل على مذكرة توقيف بحقك».

«تستطيع أن تفعل ما تريده بهذا» قال بيكر بتحدي.

كل شيء بذلك الوجه الغرانيتي كان يقول إنه لن ينطق أية كلمة إضافية مهما كانت محاولات الشرطة بالتحقيق معه، وبدا أن كل شيء قد انتهى لولا وصول صوت أنثوي إلى آذاننا.

«لقد قمت بالكافي لأجلنا، بيكر» قالت السيدة دوغلاس التي كانت تستمع لنا منذ نصف ساعة خارج باب الغرفة: «ومهما حصل في المستقبل فقد قمت أنت بما يكفي».

«الكافي والأكثر من الكافي» علق أنطونيو بصدق: «أنا متعاطف تماماً معك سيدة دوغلاس، وسأحثك بشدة أن تثقي بعدالة محكمتنا وأن تثقي أكثر بالشرطة، لربما أنا نفسي لم أفهم التلميح الذي أعطيتني إياه عبر صديقي الطبيب كارلوس، لكن بذلك الوقت كان عندي كل الأسباب التي تجعلني أعتقد إنك متورطة بالجريمة.

الآن أنا متأكد أن الأمر لم يكن كذلك. بنفس الوقت، لا يزال هناك الكثير الذي يحتاج للشرح وأطلب منك توصية السيد دوغلاس بأن يشرح لنا قصته».

شهقت السيدة دوغلاس بذهول لكلمات أنطونيو. لا شك إنني والمحققين قد فعلنا المثل حين رأينا الرجل الذي بدا وكأنه قد خرج من الحائط والذي اقترب الآن من الزاوية المظلمة التي ظهر منها. استدارت السيدة دوغلاس، وبلحظات كانت ذراعيها حوله. أمسك بيكر بيد الرجل التي امتدت نحوه.

«هذا أفضل جاك» رددت زوجته: «أنا واثقة أن هذا أفضل».

«بالفعل هذا صحيح سيد دوغلاس» قال أنطونيو: «أنا واثق إنك ستجد هذا أفضل».

أخذ الرجل يرمش بعيونه بنظرة مذهولة. كان وجهاً مميزاً ـ عيون رمادية جريئة، شارب قصير قوي، ذقن مستديرة وفم مرح. نظر إلينا بدقة

لدهشتي، إقترب مني أنا وناولني رزمة من الأوراق.

«لقد سمعت عنك» قال بلكنة لم تكن أميركية أو إنكليزية تامة، «أنت مؤرخ هذا العبقري، حسناً، حضرة الطبيب كارلوس، لم يسبق لك ورأيت قصة مثل التي بين يديك، أراهن بذلك بكل ثروتي. أسرد القصة بطريقتك الخاصة، لكن ها هي الحقائق ولن تدهش القراء بقصة أروع من هذه. لقد قضيت يومين كاملين بكتابة هذه الأوراق. مرحب بك لقراءتها ـ أنت وجمهورك. هذه قصة وادي الرعب».

«ذاك هو الماضي، سيد دوغلاس» قال أنطونيو بهدوء: «ما نرغب به الآن سماع قصتك الحاضرة».

«ستحصل عليها سيد بونتي» قال لدوغلاس: «هل أستطيع تدخين سيجارة فيما أنا أتكلم؟ شكراً لك، أنت بنفسك من المدخنين، إذا تذكرت جيداً وستتصور كم سيكون الوضع صعباً بجلوسك ليومين والتبغ معك دون أن تجرؤ على التدخين حتى لا تكشف الرائحة مكانك، لقد سمعت عنك، سيد بونتي، لم أتصور مطلقاً إنني سألتقي بك. لكن حين تنتهي من تلك الأوراق ـ فستعرف إنني قد أحضرت لك شيئاً مميزاً».

المفتش ماكدونالد كان يحدق بالقادم الجديد بكل ذهول ودهشة.

«حسن، هذا يفوق مستوى فهمي» صاح أخيراً: «إذا كنت أنت السيد جون دوغلاس مالك هذا المنزل فبموت من كنا نحقق خلال هاذين اليومين، ومن أين بحق السماء دخلت إلى هنا؟ بدا لي وكأنك خرجت من الحائط كالأشباح».

«آه، سيد ماك» رد أنطونيو وهو يهز إصبعه محذراً: «لم تكن مستعداً لسماع اللمحة التاريخية حول المنزل لتعرف المخابيء السرية الموجودة فيه، لقد أدركت إننا سنجد السيد دوغلاس تحت هذا السقف».

«ومنذ متى وأنت تلعب هذه الحيلة علينا سيد بونتي؟» سأل ماكدونالد بغضب: كم سمحت لنفسك بالسماح لنا بتضييع وقتنا بالبحث الغير مجدي؟»

«ولا للحظة واحدة يا عزيزي ماك. ليلة البارحة فقط توصلت لاستنتاجاتي، رغم إنني لم أحصل على الدليل إلا هذه الأمسية، طلبت منك ومن زميلك أخذ اليوم كراحة. ماذا كان باستطاعتي أن أفعل غير ذلك؟ حين وجدت صرة الثياب التي كانت تحت المياه أدركت أن الجثة لم تكن للسيد جون دوغلاس بل للدراج الذي أتى من نونبرج، ولا أي استنتاج آخر كان منطقياً وممكناً. ولهذا كان علي معرفة مكان تواجد السيد جون دوغلاس نفسه، وميزان الإحتمالات كان، بمساعدة زوجته وصديقه. إختبأ السيد دوغلاس في مكان سري ما داخل هذا المنزل إلى أن يحين الوقت لتدبير هروب هادىء له».

«لا بأس، لقد أعطيت تصوراً صحيحاً حول ما حدث» رد السيد دوغلاس: «اعتقدت أنه كان باستطاعتي التهرب من قانونكم البريطاني، لأني لم أكن أعرف حقيقة موقعي منه، وكذلك رأيت بهذا فرصتي للتخلص من الكلاب الذين كانوا بأثري منذ سنين. أؤكد لكم أنه من البداية وحتى النهاية لم أرتكب أي عمل مشين أخجل منه ولكنكم ستحكمون على ذلك بأنفسكم حين تسمعون قصتي التي سأتلوها عليكم بكل صدق وصراحة.

لن أبدأ من البداية لأن البداية موجودة عندكم بين الأوراق، الملخص هو أن بعض الرجال عندهم كل الأسباب ليكرهوني وليتمنوا لي الموت ويسعون لقتلي. طالما إنهم على قيد الحياة وأنا على قيد الحياة فلن يكون هناك أي أمان لي في هذا العالم. طاردوني من شيكاغو إلى كاليفورنيا ثم طاردوني خارج أمريكا، لكن حين تزوجت واستقريت بهذه المنطقة ظننت

أن سنوات عمري هنا ستمر بسلام. لم أشرح لزوجتي الأمر. ولماذا أورطها بهذا؟ لن تحظى بلحظة سلام واحدة إن أنا فعلت بل ستتخيل دوماً المتاعب والمشاكل. ولهذا لم أطلعها على أي شيء مخافة عليها من القلق. لكنها الآن تعرف كل شيء. شد على يدها بحب: «ولربما هذا ما كان يجب أن يحدث منذ البداية. حسناً، حضرة السادة. في اليوم الذي سبق الحادثة كنت في سوق تونبرج حين لاحظت وجود رجل على دراجة، لمحته للحظة فقط لكني أدركت فوراً هويته. كان أسوأ عدو لي من بينهم جميعاً ـ الرجل الذي كان يلاحقني كالثعلب الجائع منذ سنوات. أدركت إن متاعب قريبة كانت على وشك الحدوث فعدت إلى المنزل واستعديت لذلك.

ظللت متنبهاً طوال اليوم التالي ولم أخرج حتى إلى الحديقة. بعد رفعنا للجسر ـ كان عقلي يرتاح أكثر كلما ارتفع ذلك الجسر في المساء ـ ظننت أن الخطر قد زال لهذا اليوم. لكن حين قمت بجولتي الليلية المعتادة ودخلت غرفة المكتب وأنا أرتدي ملابس نومي شعرت بالخطر. أفترض أن الرجل الذي يتعرض للكثير من الأخطار في حياته يشم رائحة الخطر حيثما يكون. فتنبهت ورأيت حذاء للرجل المختفي خلف الستارة.

لم يكن معي إلا الشمعة لكن الضوء كان يتسلل من الممر منيراً المكان.

وضعت الشمعة على المكتب وأسرعت بإمساك المطرقة التي كانت على الأرض. بنفس اللحظة هجم علي. رأيت بريق السكينة التي كانت بيده فأسرعت بضربه بالمطرقة. أصبته بمكان ما لأن السكينة سقطت من يده على الأرض. إستدار حول المكتب بسرعة فائقة وتناول السلاح القاتل من جيب معطفه. سمعته يدك البندقية لكني أمسكت بها قبل أن يوجهها

نحوي. أمسكتها من الماسورة وتصارعنا للسيطرة عليها لدقيقة أو اثنتين. الموت كان بالمرصاد للرجل الذي سيفلت قبضته. لم يفلت قبضته لكن البندقية اتجهت نحو الأعلى لفترة طويلة. لربما أنا من شددت الزناد. أو لربما أنا وهو سوياً. لكن الطلقتين أصابتا وجهه ووقفت أنا مكاني بذهول مشاهداً لما تبقى من وجه تيد بالدوين ورأسه. ميزته حين رأيته في السوق وبنفس اللحظة التي هجم بها علي، لكن والدته نفسها ما كانت لتميزه بالحالة التي أصبح عليها لاحقاً. أنا معتاد على المناظر القاسية، لكني أوشكت على الإغماء لرؤيتي لما أصابه.

كنت أتكأ على طرف المكتب حين وصل بيكر إلى الغرفة سمعت صوت زوجتي التي وصلت بدورها فأسرعت نحو الباب ومنعتها من الدخول حتى لا تشاهد المنظر المروع. وانتظرنا وصول بقية للخدم للحظات لكن أحداً لم يحضر.

بتلك اللحظة خطرت الفكرة ببالي. إنصعقت لهذه الفكرة الباهرة. أكمام الرجل كانت قد ارتفعت ورأيت علامة اللودج على ذراعه. أنظروا إلى هنا».

رفع دوغلاس كمه ورأينا المثلث داخل الدائرة نفسه الموجود على الجثة «رؤيتي لهذه العلامة هي التي جعلت الفكرة تخطر ببالي». تابع دوغلاس: «بدا لي كل شيء واضحاً وظاهراً. طوله وجسده كانا مشابهان لي تماماً وكذلك لون شعره. أما فيما يتعلق بوجهه فأحداً لن يميزه، اللعين المسكين! غيرت له ملابسه وبلحظات كان يرتدي مئزري وثيابي. جمعنا كل أغراضه وثيابه برزمة ووضعت الدمبل داخل الصرة حتى تغرق إلى قعر المياه. البطاقة التي قصد أن يتركها بجانب جثتي تركتها بجانب جثته. خلعت خواتمي والبسته إياها ولكن خاتم الزفاف لم يخرج من إصبعي. فهو بنفس مكانه منذ تزوجت ولو حاولت خلعه فلن أستطع ولهذا فقد تركت هذا التفصيل الصغير.

ومن ناحية أخرى فقد وضعت قطعة ضمادة صغيرة على فكه مكان تواجد الضمادة هنا على فكي. لقد غاب هذا عنك سيد بونتي، لو انك خلعت الضمادة لما وجدت تحتها أي جرح.

حسن، هذا ما حدث. إذا استطعت الإختباء لفترة ثم الهروب بهدوء إلى مكان خاص حيث تلحق بي زوجتي لاحقاً فهذه ستكون فرصتنا بالعيش بسلام واطمأنان أخيراً. هؤلاء الشياطين ما كانوا ليتركوني بسلام ما دمت على سطح الأرض، لكن إذا عرفوا أن بالدوين قد نجح بمهمته فهذه ستكون نهاية مشاكلي. لم أرغب بشرح الأمر لبيكر ولزوجتي لكنهما فهما ما فيه الكفاية ليساعدوني. كنت أعرف هذا المخبأ السري وروجر كان يعرفه بدوره لكنه لم يتدخل بهذا الموضوع. اعتمدت على ذلك وتركت بيكر ليقوم بالباقي.

أظن إنكم تعرفون ما الذي فعله، فتح النافذة ووضع علامة الدم ليعطي إيحاءاً بهروب المجرم. بما أن الجسر كان مرفوعاً فهذه هي الطريقة الممكنة الوحيدة للهرب. ثم بعد تدبير كل شيء رن الجرس وحدث ما تعرفونه ـ ولهذا حضرة السادة، تستطيعون القيام بما ترغبون به، لكني قد أطلعتكم على كل الحقيقة، ولذا ساعدوني، يا إلهي! ما أطلبه منكم الآن هو كيف بإمكاني فهم القانون البريطاني؟» ساد صمت قطعه أنطونيو.

«القانون البريطاني هو مجرد قانون كباقي القوانين، لن تصاب بالأسوأ من جهته، لكني سأسألك كيف عرف هذا الرجل إنك تسكن هنا، أو كيف دخل إلى منزلك وكيف عرف أين يختبأ حتى ينال منك».

«لا أعرف شيئاً عن هذا».

شحب وجه أنطونيو بشدة وتصلب.

«القانون البريطاني ليس أسوأ ما ستتعرض له» قال صديقي بجدية: «ستقابلك الكثير من المخاطر غير القانون البريطاني، أو حتى أسوأ من

أعدائك من أمريكا. أرى المشاكل أمامك، سيد دوغلاس خذ نصيحتي وابق حريصاً».

والآن حضرة القراء الأعزاء سأسرد عليكم تفاصيل قصة حدثت قبل عشرين سنة في بلاد بعيدة لكنها أغرب وأكثر القصص عجباً التي سبق لكم أن سمعتوها بحياتكم. بعدها سأعود وإياكم إلى تلك الغرفة في شارع بيكر حيث سنحصل كالعادة على النهاية لهذه القضية كغيرها من القضايا السابقة.

الفصل الأول
الرجل

كان الرابع من شباط عام 1875. كان الشتاء قارساً والثلوج قد كللت قمم جبال غيلموتون. القطار الذي يصل بين المناجم ومساكن التعدين كان يشق طريقه عبر الأراضي البيضاء نحو فيرميسا، البلدة الرئيسية التي تقع وسط وادي فيرميسا. كان القطار ينقل بحجراته الكثيرة الفحم والحديد، كنز هذه المنطقة والذي جعل عدد سكان البلدة يزداد ويتكاثر بوقت قصير.

الحقول والبراري الشاسعة كانت تمتد على مد البصر في هذا الوادي الذي كان القطار يقطعه.

في عربة المسافرين كانت الأضواء مضاءة. كانت العربة تجمع حوالي الأربعين مسافراً. مجموعة من عمال المناجم العائدين من أعمالهم اليومية بوجوههم المسودة الصلبة. كانوا يتحدثون بصوت منخفض ويدخنون التبغ. أمامهم كان يجلس رجلين بثياب رسمية تدل إنهما شرطيين. وكان هناك بعض النساء العاملات وواحدة أو اثنتين من صاحبات المحلات

وكان هناك رجل شاب يجلس في الزاوية. إنتبهوا جيداً لهذا الشاب لأنه محور قصتنا.

إنه شاب وسيم الطلعة متوسط القامة بعمر العشرينات. عيونه الرمادية المرحة الواسعة كانت تتنقل على الركاب حوله بمرح من خلف نظارته الصغيرة. مظهره كان يدل إنه ذو مستوى اجتماعي لائق وإنه متشوق لمصادقة كل الرجال. وكان بذكاء متوقد وابتسامة سريعة دافئة. لكن المحدق به أكثر سيلاحظ تصلب فكه وثبات جبينه مما يدل على طبيعته القوية الصارمة الواثقة وإن هذا الشاب الوسيم الإيرلندي سيترك أثراً سيئاً أو جيداً على المجتمع الذي يوشك على الإنخراط به.

بعد تبادله لبعض الكلمات مع عامل المنجم الذي كان يجلس بجانبه تابع النظر عبر النافذة نحو الأراضي الشاسعة في الخارج. كانت نيران المراجل تبدو من خلف التلال من البعيد. أكوام من الحديد والتراب كانت متناثرة قرب التلال. أودية فيرميسا المزروعة بالمناجم الكثيرة لم تكن مكاناً للهو والتسلية. في كل مكان كان هناك آثاراً لمصارعة الحياة، للعمل المضني الذي يقوم به العمال الأشداء.

المسافر الشاب حدق بما حوله بتعبير مستمتع وغير معجب بنفس الوقت مما أظهر أن المشهد كان جديداً عليه. بين الحين والآخر كان يتناول رسالة من جيبه ويدون على هامشها بعض الملاحظات. كذلك مرّة أو مرتين تناول من جنبه مسدساً يستغرب وجوده مع شاب صغير السن مثله، لكنه أعاد وضعه بسرعة إلى جيبه. لكن ليس قبل أن ينتبه له العامل الجالس بجانبه.

«واو، يا رفيق» قال الرجل: «تبدو مستعداً وجاهزاً».

إبتسم الشاب بارتباك.

«أجل» قال: «نحن نحتاجه أحياناً في المكان الذي أتيت منه».

«وأين هو ذلك المكان؟».

«كنت مؤخراً في شيكاغو».

«أنت غريب بهذه المنطقة؟».

«أجل».

«قد تجد إنك ستحتاجه هنا». قال العامل.

«آه! صحيح؟» بدا الإهتمام على الشاب.

«ألم تسمع شيئاً من بعض الأحداث التي تحصل هنا؟».

«لا شيء غير عادي».

«ظننت البلدة ممتلئة بما هو غير عادي. ستسمع بالكثير قريباً. ما الذي جعلك تأتي إلى هنا؟».

«سمعت أن هنا يوجد عملاً للرجل المصمم».

«هل أنت أحد أعضاء إتحاد العمال؟».

«بالطبع».

«إذن ستحصل على العمل الذي تريد. على ما أظن. هل عندك أي أصدقاء؟».

«ليس بعد، لكن عندي الوسيلة لذلك».

«وكيف ذلك؟».

«أنا أحد أعضاء الأحرار القدامى. لا تخلو أية بلدة من وجود هذه الجمعية بها. وهكذا فأعضاء هذه الجمعية سيكونون أصدقائي».

كلمات الشاب جعلت العامل ينظر حوله بشك وارتياب. العمال كانوا لا يزالون يتحدثون بهمس. رجلا الشرطة كانا غافيين. فاقترب العامل أكثر من الشاب وأمسك بيده.

«ضعها هنا» قال.

تصافحا سوياً.

«أرى إنك تقول الحقيقة. لكن من الأفضل التأكد من ذلك».

رفع العامل يده نحو جفنه الأيمن فرفع الشاب يده اليسرى نحو جفنه الأيسر.

«الليالي السوداء غير سارة» قال العامل.

«أجل، لسفر الغرباء» رد الشاب.

«هذا جيد كفاية. أنا الأخ سكاربي، رقم 341، فيرميسافالي. أنا مسرور لرؤيتك بهذه الأنحاء».

«شكراً لك. أنا الأخ جاك ماكوردو، رقم 29، شيكاغو تابع الرئيس جـ. هـ. سكات. لكني مسرور جداً بلقائي بأخ بهذه السرعة».

«لا بأس هناك الكثير منا بهذه الأرجاء. لن تجد النظام مستتباً بأي مكان آخر في الولايات كلها أكثر من فيرميسا فالي. لكن نستطيع الإستفادة من شاب مثلك. لا أستطيع أن أفهم كيف شاباً في الإتحاد لا يجد عملاً مناسباً في شيكاغو».

«كان عندي الكثير من العمل لأقوم به هناك» قال جون.

«إذن لماذا تركت شيكاغو؟».

أشار الشاب نحو الشرطيين وابتسم.

«أظن أن هؤلاء سيسرون جداً بسماع السبب» قال.

إبتسم سكاربي بدوره بتعاطف.

«أنت بمشكلة؟» سأل الرجل بهمس.

«عويصة».

«عمل يتعلق بالسجن؟»

«وما يتعلق به».

«ليس قضية قتل؟».

«الوقت باكر للتحدث حول هذا الأمر». قال ماكوردو بنبرة الرجل الذي شعر إنه قد باح بأكثر مما كان عليه البوح به.

«كان عندي سبباً مهماً لترك شيكاغو، وليكن هذا كافياً لك. من تعتبر نفسك حتى تسأل كل هذه الأسئلة؟»

التمعت عيونه الرمادية بخطر غاضب مفاجيء.

«لا بأس يا رفيق، لم أقصد أية إهانة. لن يظن الشباب بك أي سوء مهما كان ما فعلته سابقاً. إلى أين تتجه الآن؟»

«إلى فيرميسا».

«إنها المحطة الثالثة. أين ستقيم؟»

تناول ماكوردو مظروفاً من جيبه وقربه من الضوء.

«ها هو العنوان ـ مارك شافتر، شارع شريدان. إنه سكن خاص أوصاني به أحد الأشخاص في شيكاغو».

«حسن، لا أعرف المكان، لكنني لا أعرف فيرميسا كثيراً. أنا أسكن في هوبسون محطتنا التالية. لكن قبل أن نفترق دعني أنصحك نصيحة ذهبية. إذا واجهتك أية متاعب في فيرميسا، إذهب مباشرة إلى يونيون هاوس وقابل الرئيس ماكسيل. إنه رئيس الجمعية في فيرميسا ولا شيء يحدث في هذا المكان إذا لم يرغب به جاك ماكسيل الأسود. إلى اللقاء يا رفيق. لربما سنلتقي بالجمعية يوماً ما. لكن تذكر كلماتي إذا واجهتك المشاكل فاذهب إلى الريس ماكسيل».

نزل سكاربي وعاد ماكوردو إلى أفكاره. الظلام كان قد حل تماماً. وظهرت أكثر نيران المراجل وكذلك صوت هدير النار داخلهم.

«أظن أن جهنم ستبدو بمثل هذا المنظر» قال أحدهم.

ماكوردو استدار وشاهد أحد رجال الشرطة يحدق عبر النافذة.

«حقاً» رد الشرطي الثاني: «أعتقد أن جهنم ستبدو هكذا. إذا كان هناك شياطين أكثر في هذه المنطقة غير الذين نعرفهم فأظن أن المكان

سيصبح مماثلاً تماماً لها. أظن إنك جديد بهذه الإنحناء أيها الشاب؟».

«حسناً، وماذا إذا كنت كذلك؟» أجاب ماكوردو بصوت واثق.

«مجرد السؤال يا سيد، حتى أنصحك بالحرص بانتقائك لأصدقائك.

«ما كنت لأبدأ بسكاربي وعصابته لو كنت مكانك».

«وماذا يهمك أنت بشأن اختياري لأصدقائي؟» هدد ماكوردو بصوت جعل رؤوس كل من داخل الحافلة يتجه إليه: «هل طلبت منك أنا النصيحة، أم أنك تظنني غبياً بحاجة للنصيحة؟ تكلم حين أطلب منك ذلك وذلك لن يكون قريباً».

إبتسم بخبث للشرطي كالذئب.

الشرطيان الطيبوا القلب اندهشا بحدة رد الشاب على محاولتهما أسداء النصيحة.

«لا إهانة، يا غريب» قال أحدهم: «كان هذا مجرد تحذير لصالحك كونك غريب وجديد هنا».

«أنا غريب عن المكان لكني لست غريباً عنكما وعن أمثالكما» رد ماكوردو بغضب بالرد: «أعتقد إنكم من نفس الطينة أينما كنتم تعطون نصائحكم لمن لا يطلبها منكم».

«لربما سنراك مجدداً قبل مضي وقت طويل» قال أحد الشرطيين بابتسام: «أنت فعلاً شخص مشاكس، كما أرى».

«كنت أفكر بذلك» رد الآخر: «أعتقد إننا سنلتقي مجدداً».

«أنا لا أخاف منكم ولا تعتقدوا ذلك أبداً» صاح ماكوردو: «إسمي هو جاك ماكوردو ـ أترون؟ إذا اردتماني فستجداني في فيرميسا شارع شيردان عند مارك شافتر، إذن أنا لا أختبأ منكما، أترون؟ ليلاً أو نهاراً سأنظر إلى وجهكما بكل جراة. لا تخطئا بذلك».

كان هناك تمتمات إعجاب وتعاطف بين العمال حول الشاب الجريء وهز الشرطيين أكتافهما وتابعا حديثهما العادي. وصل القطار إلى محطة فيرميسا وحمل حقيبته الصغيرة وكان على وشك مغادرة القطار، حين اقترب منه أحد عمال المناجم.

«هيه يا شاب لك فعلاً طريقة جريئة بالتخاطب مع رجال الشرطة» قال العامل: «دعني أحمل هذا الكيس عنك أنا سأمر بشافتر بطريقي نحو كوخي سأدلك على الطريق».

«تصبح على خير» قالها له العديد من العمال بحرارة وهم يغادرون القطار بدورهم وقبل أن يضع جون ماكوردو قدمه على أرض الوادي أصبح شخصاً معروفاً في فيرميسا.

البلدة كانت كئيبة وداكنة. شارعها ضيق والرصيف متعرج وضيق بدوره والمنازل كانت بشعة المنظر وفقيرة.

«هذا هو يونيون هاوس» قال المرشد مشيراً إلى أحد الأبنية: «جاك ماكسيل هو الريس هنا».

«أي نوع من الرجال هو هذا؟» سأل ماكوردو.

«ماذا! ألم تسمع بالريس؟»

«كيف بإمكاني السماع به وأنا غريب في المنطقة؟»

«لا بأس، لقد اعتقدت أن إسمه معروف في كل أرجاء المنطقة. فقد ذكر إسمه في الصحف دوماً».

«لأي سبب؟».

«حسناً ـ» خفض العامل صوته: «بتلك المسائل؟».

«أية مسائل؟».

«يا إلهي، يا سيد، أنت غريب الأطوار فعلاً وبالغ الطيبة، إسمح لي أنا

لا أقصد الإهانة. هناك مسائل من نوع واحد ستسمعه في هذه الأنحاء، وتلك هي مسائل السكاورز».

«أظن إنني قد سمعت عن السكاورز في شيكاغو. عصابة من المجرمين، أليس كذلك؟».

«أصمت، إنتبه لحياتك» صاح العامل وحدق بذهول بالشاب: «يا رجل، لن تعيش مطولاً في هذه الأنحاء إذا تحدثت بهذه الطريقة. العديد من الرجال قد خسروا حياتهم لسبب أتفه من هذا».

«حسناً، لا أعرف أي شيء عنهم. هذا فقط ما قرأته».

«وأنا لا أقول إنك لم تقرأ إلا الصحيح». قال الرجل بعصبية وهو ينظر حوله: «إذا كان القتل جريمة، فالله يعرف أن هناك العديد من الجرائم المرتكبة هنا من قبلهم. لكن لا تتجرأ وتربط بين إسم جاك ماكسيل وبين هذه الجرائم، لأن كل همسة تعود إليه، أيها الغريب، وهو لا يترك أي شيء يفلت من بين يديه. والآن ذلك هو المنزل الذي تفتش عنه ـ ذاك البعيد عن الطريق. ستجد مارك شافتر المسؤول عن المكان كأحسن وأشرف رجل في البلدة كلها».

«شكراً جزيلاً لك» قال ماكوردو وودع العامل ثم حمل كيسه وانطلق نحو مدخل المنزل، طرق الباب وفتحه له شخص لم يطابق توقعاته.

من فتح الباب كانت إمرأة شابة جميلة جداً. كانت من الطراز السويدي، شقراء بشعر أملس بعيون سوداء واسعة نظرت إلى الغريب بتفحص واستغراب مرتبك لون وجهها الجميل بالأحمر الخجل. وجد ماكوردو إنه لم يسبق له وشاهد فتاة بمثل هذا الجمال الفتان. زهرة بنفسجية رائعة مثل هذه تبدو غريبة بمكان كئيب لعمال المناجم مثل هذا. ظل يحدق بها باندهاش وإعجاب وكانت هي من قطع الصمت.

«ظننت أن الطارق والدي» قالت بلكنة سويدية محببة: «هل أتيت لتراه؟ إنه في البلدة. أتوقع عودته بأية لحظة».

ظل ماكوردو يحدق بها بإعجاب واضح إلى أن أخفضت عينيها بارتباك أمام هذا الغريب المتسلط.

«كلا، يا آنسة» قال أخيراً: «لست مستعجلاً لرؤيته. لكن أحدهم نصحني بالسكن في منزلكم هذا. ظننت أن ذلك سيناسبني لكني الآن متأكد من ذلك».

«أنت سريع بأخذ قراراتك» قالت بابتسام.
«أي شخص باستثناء الرجل الضرير سيدرك ذلك» أجابها.
ضحكت لإطراءه.
«تفضل بالدخول يا سيد» قالت: «أنا الآنسة لوتشيا شافتر إبنة السيد شافتر. والدتي متوفاة وأنا أدير المكان. تستطيع الجلوس قرب المدفأة في غرفة الجلوس إلى أن يصل والدي، آه، ها هو، ستتمكن من تسوية الأمور معه على الفور».

دخل المكان رجل كبير في السن. بكلمات قليلة شرح له ماكوردو مطلبه. وأخبره أن مورفي نصحه بالقدوم إلى هنا للسكن ووافق الشاب على طلبات العجوز وكذلك على المبلغ الذي طلبه دون أي مناقشة. وهكذا باستأجاره لغرفة عند آل شافتر كان الشاب ماكوردو يقوم بالخطوة الأولى بطريق طويل جداً يبدأ بسلسلة من الأحداث الداكنة التي ستنتهي في بلاد أخرى.

الفصل الثاني

الريس

ماكورود كان رجلاً يثير الإنطباع الخاص عند كل من يلتقيه ومن المرة الأولى. حيثما حل كان السكان يلتفون حوله وبعد أسبوع أصبح من أهم الشخصيات المقيمة عند شافتر. كان هناك حوالي عشرة نزلاء آخرين لكنهم كانوا تجاراً شرفاء أو موظفين عاديين ومن نوع يختلف تماماً عن نوع الشاب الإيرلندي. كل أمسية حين يجتمعون كانت نكاته هي الأشد مرحاً، حديثه الأشد سحراً وغناءه الأكثر جمالاً. كان مخلوقاً إجتماعياً بارزاً يظهر بوضوح بين المجموعة ويجذب كل الإنتباه نحوه كما يجذب المغناطيس الحديد. لكنه أيضاً كان يظهر أحياناً، كما فعل في حافلة القطار، غضباً مفاجئاً وحدة طباع كانت تجعل الآخرين يحترمونه أو يخافونه. بالنسبة للقانون أيضاً، كان الشاب يظهر احتقاره وازدرائه التام له مما كان يُفرح البعض ويُحذر البعض الآخر من هذا الشاب الغريب.

منذ البداية أوضح، بإعجابه الظاهر، إن إبنة صاحب النزل قد كسبت قلبه منذ اللحظة الأولى التي وقع بها نظره عليها. لم يكن من المترددين.

ففي اليوم التالي مباشرة أخبرها إنه يحبها ومنذ ذلك الحين أخذ يردد هذه القصة دون الإهتمام مطلقاً بما قد تقوله وتصده به.

«هناك أحد آخر» كان سيصيح: «لا بأس، الحظ الأسوأ للشخص الآخر هذا! ليذهب ويفتش عن فتاة غيرك لنفسه! هل أخسر فرصة حياتي وكل حب قلبي من أجل شخص آخر؟ تستطيعين أن تستمري بقول «لا» لوتشيا! سيأتي اليوم الذي تقولين فيه «نعم» وأنا شاب كفاية لأنتظر ذلك اليوم».

كان متحدثاً لبقاً وساحراً وكانت هالة من الغموض والخبرة تحيط به مما يجعله جذاباً ومثيراً لأي إمرأة. كان يتحدث عن البلاد التي زارها عن طبيعتها عن جمالها عما مر به هناك وما عاناه ثم يصل إلى الرومانسية ليقول إنه صادف هنا بهذا الوادي المجدب أمل حياته وحبه الأكبر، وكانت لوتشيا تستمتع له وعيونها السوداء تبرق بالتعاطف والحنو - هاتين العاطفتين اللتين ستتحولان بسرعة وبطبيعية إلى حب. إستلم ماكوردو عملاً مؤقتاً كبائع في مكتبة لأنه كان مثقفاً كفاية. كان هذا العمل يبقيه مشغولاً معظم النهار وكان يعود مساءاً إلى المنزل ولهذا فقد نسي كل شيء حول الريس الذي حدثه عنه رفيقه في القطار. لكن أحد الأيام زاره سكاربي سكانلان بنفسه وبعد فترة من جلوسه وتناوله للشراب بدأ الموضوع.

«سيد ماكوردو» قال سكاربي: «لقد تذكرت عنوانك ولهذا تجرأت وأتيت لزيارتك. أنا مندهش لأنك لم تتصل بالريس بعد. لماذا لم تذهب للريس ماكسيل بعد؟».

«حسناً، كان علي إيجاد العمل، وكنت منشغلاً».

«يجب أن تجد الوقت لتزوره قبل أي شيء آخر. يا إلهي، يا رجل، لقد كنت مجنوناً بعدم توجهك إلى يونيون هاوس وتسجيل إسمك في اليوم التالي لوصولك إلى هنا مباشرة! إذا تجاهلته - حسن. لا يجب أن تفعل

ذلك - هذا كل شيء».

أظهر ماكوردو دهشته.

«أنا عضو في الجمعية منذ سنتين تقريباً. سكانلان، ولم أسمع قط بضرورة القيام بهكذا تصرف».

«ربما ليس في شيكاغو!».

«حسناً، إنها نفس الجمعية هنا!».

«حقاً؟» نظر سكانلان إليه مطولاً وبدقة. كان هناك شيئاً ما داخل عينيه.

«أليس هذا صحيحاً؟».

«ستخبرني بنفسك بذلك بعد شهر من الآن. سمعت إنك أجريت بعض الحديث مع رجُلي الشرطة بعد مغادرتي للقطار».

«كيف عرفت ذلك؟»

«آه إنها أمور تنتشر بسرعة - كل شيء ينتشر بهذه المقاطعة».

«حسناً، أجل، لقد أخبرت الكلاب ما هو رأيي بهم».

«يا إلهي، ستكون رجلاً مقرباً جداً من ماكسيل».

«ماذا - هل يكره هو بدوره الشرطة أيضاً؟».

إنفجر سكانلان بالضحك.

«إذهب وقابله يا بني» قال سكانلان قبل أن يغادر: «الأمر لا يتعلق بالشرطة بل بك، سيكره ذلك إذا لم تفعل! والآن، خذ نصيحة من صديق واذهب لتقابله حالاً».

صدف إنه بنفس الأمسية واجه ماكوردو حادثة ضغطت عليه أكثر ليذهب إلى تلك المقابلة. لربما اهتمامه الظاهر بالإبنة أو أي سبب آخر دفع بصاحب النزل لاستدعاء الشاب إلى مكتبه الخاص حيث بدأ الموضوع فوراً.

«يبدو لي يا سيدي» قال: «إنـك تضع عينـك على لوتشيـا. هل هـذا صحيح أم إنني على خطأ؟».

«أجل، هذا صحيح» أجاب الشاب.

«حسناً، أريد أن أخبرك الآن فوراً أن تصرف نظر عن هذا الموضوع. أحدهم قد تكلم معي حولها».

«لقد أخبرتني بذلك».

«حسناً، تأكد أن ما قالته لك صحيح! لكن هل أخبرتك عن هوية هذا الشخص؟».

«كلا، لقد سألتها عن ذلك لكنها لم تطلعني على ذلك».

«أستطيع القول إنها لم تفعل لأنها لم ترغب بإخافتك».

«إخافتي!» إشتعل غضب ماكوردو فوراً.

«إهدأ، أجـل، يـا صـديقي! لا داعي لتخجـل من أن تخـاف منـه، الشخص هو طوم بالدوين».

«ومن هو هذا بحق السماء؟».

«إنه زعيم السكاورز».

«السكـاورز! لقد سمعت عنهم من قبـل. هذا يقـول السكاورز وذاك يتحدث عن السكاورز وكـل هذا بهمس! مم تخـافون جميعـاً؟ من هم السكاورز هؤلاء؟».

أخفض صاحب النزل صوته فوراً كما يفعل جميع من ينطق هذا الإسم في هذه البلدة.

«السكاورز» قال العجوز: «هم الرجال الأحرار القدامى».

إنذهل الشاب.

«ولكن أنا نفسي عضواً بهذه الجمعية».

«أنت! ما كنت لأستقبلك بمنزلي لو عرفت ذلك حتى ولو دفعت لي مئة دولار في الأسبوع».

«ما السيء بهذه الجمعية؟ إنها لعمل الخير والصداقة. القوانين تقول ذلك».

«ربما في أماكن أخرى. ولكن ليس هنا».

«وكيف هي الحال هنا؟».

«إنها جمعية للإجرام، هذه هي حالها هنا».

إنفجر ماكورود بالضحك بعدم تصديق.

«كيف تبرهن ذلك؟» سأل.

«أبرهن ذلك! أليس هناك خمسون جريمة لبـرهنة ذلـك؟ ماذا حـول ميلمان وشورتز، وعائلة نيكولاس، السيد جـون العجوز، وبيللي جيمس الصغير. والآخرون؟ أبرهن ذلك! هل هناك رجل أو إمرأة واحدة بكل هذا الوادي لا يعرف ذلك؟».

«إسمع» قال ماكوردو بحرارة: «أريدك أن تسترجع كـل ما قلتـه أو أن تشبه. عليك أن تفعل ذلك قبل أن أغادر هذه الغرفة. ضع نفسك مكاني. ها أنا هنا، غريب عن البلدة، أنتمي لجمعية أعرف إنها جمعية خير وعمل اجتماعي. والآن، في حين إنني أستعد للإنضمام إلى هذه الجمعية هنا، أنت تقول لي إنها نفس الجمعية المجرمة المسمى «السكاورز». أعتقـد إنك تدين لي باعتذار أو بشرح سيد شافتر».

«أستطيع فقط أن أخبـرك أن كل العـالم يعرف ذلـك يا سيـد، رؤساء الجمعيـة الأولى هم نفسهم رؤساء الجمعيـة الثانيـة. إذا أهنت الـواحـد فسينتقم منك الثاني، لقد برهنوا لنا ذلك مراراً».

«هذه مجرد أقاويل! أنا أريد براهين!» قال ماكوردو.

«إذا طـالت إقامتـك هنا فستحصـل على براهينـك. لكني نسيت إنك

نفسك واحد منهم. ستصبح قريباً سيئاً مثلهم تماماً. لكن سيكون عليك إيجاد مسكن آخر لـك يا سيـد. لا أريدك أن تبقى هنـا. ألا يكفيني أن واحداً منكم يأتي ليجالس إبنتي لوتشيا وأنا لا أجرؤ على منعه، والآن تريد أن أبقيك أنت أيضاً هنا؟ أجل، لن تنام هنا الليلة أخرى بعد الآن».

وهكذا فقد تعرض الشاب لحكم بالنفي ليس من غرفته فقط بل بعيداً عن حبيبته أيضاً. ولهذا فقد اتجه ماكوردو إلى غرفة الجلوس بنفس ذلك اليوم حيث كانت لوتشيا وحدها هناك. باح لها بهمومه ومشاكله.

«بالطبع والدك يـوشك عـلى طردي» قـال: «ما كنت لأكـترث لو أن الأمـر يتعلق بغرفتي فقط، لكن لوتشيا وأقسم إنني أقول الصدق إنه وبرغم تعرفي إليـك منذ أسبـوع فقط فقـد أصبحت نفسُ حيـاتي ولا أستـطيـع العيش بدونك».

«آه، أسكت سيد ماكورود» ردت الفتاة: «لا تتكلم هكـذا! لقد قلت لك، ألم أفعل إنك قد وصلت متأخراً!؟ هناك شخص آخر لو لم أكن قد وعدته بالزواج فـوراً فعلى الأقل لن أتمكن من أن أعـد بذلـك أي رجل آخر».

«إفترضي إنني كنت الأول، لوتشيا، هل كنت سأحظى بفرصة؟»

دفنت الفتاة وجهها بيديها.

«أتمنى من السماء لو انك كنت الأول» قالت وهي تبكي بحرقة. ركع ماكوردو على ركبتيه فوراً أمامها.

«بحق الله، لوتشيا، لنبق الأمر هنا» صـاح: «هل ستهـدمين حياتـك وحياتي من أجل هذا الوعد؟ إتبعي قلبك يا حبي! إنه المرشد الأصح من أي وعد نطقت به قبل أن تعي تماماً ما كنت تقولين».

كان قد أمسك يد لوتشيا البيضاء الناعمة بين يديه البنيتين الصلبتين.

«قولي إنك ستكونين لي وسنواجه العالم سوياً».

«ليس هنا!».

«بلى هنا».

«كلا، كلا، جاك» ذراعيه كانتا حولها الآن: «من المستحيل أن يكون ذلك هنا، أتستطيع أن تأخذني بعيداً عن هنا؟».

ظهر الصراع على وجهه للحظة لكن وجهه عاد وتصلب.

«كلا، هنا» قال: «سأحميك وأدافع عنك ضد العالم لوتشيا، هنا حيث نحن».

«ولم لا نرحل من هنا سوياً؟».

«كلا، لوتشيا، لا أستطيع مغادرة هذا المكان».

«لكن لماذا؟».

«لن أتمكن من رفع رأسي مطلقاً إذا شعرت إنني قد هربت من مكان ما. وأيضاً، ما الذي يدفعك للخوف؟ ألسنا شعب حر في بلاد حرة؟ إذا كنت تحبينني وأنا أحبك فمن سيجرؤ على الوقوف في طريقنا؟».

«أنت لا تعرف جاك. لقد مضى عليك وقت قصير هنا. أنت لا تعرف بـالدوين هذا. لا تعرف ماكسيل والسكاورز أتباعه».

«كلا، لا أعرفهم، ولا أخشـاهم ولا أؤمن بهم» قال مـاكوردو: «لقـد عشت بين الرجال القساة يا حبيبتي، وبدلاً من أن أخافهم كان الأمر ينتهي دوماً بأن يخافوا هم مني ـ دوماً، لوتشيا، إذا كان هؤلاء الرجال، كما يقول والدك، قد ارتكبوا الجريمة تلو الجريمة في هذا الوادي، فكيف لم يمثل أحدهم أمام العدالة؟ أجيبيني على ذلك لوتشيا».

«لأن ولا شاهد يجرؤ على الشهادة ضدهم. لن يعيش لشهر واحد إذا فعل. ولأنه دوماً يكون عندهم رجالهم الذين يقسمون أن الشخص المتهم كان معهم أثناء حدوث الجريمة، لكن بالتـأكيد جـاك أنت قد قـرأت كل

هذا! فهمت أن كل صحف البلاد كانت تكتب عن ذلك».

«حسناً، لقد قرأت بعضاً من هذا، هذا صحيح، لكني ظننتها مجرد قصة. لربما لهؤلاء الرجال سبب خلف ما يفعلوه. لربما الآخرون يظلموهم ولا يعرفوا الحقيقة».

«آه، أرجوك، لا تدعني أسمعك تتكلم بهذه الطريقة. هكذا يتكلم الآخر ـ بالدوين».

«بالدوين ـ هو يتكلم بهذه الطريقة؟».

«أجل ولهذا أنا أكرهه وأبغضه. آه، جاك، الآن سأطلعك على الحقيقة أنا أبغضه من أعماق قلبي، لكني أخافه أيضاً. أخاف منه على نفسي وعلى والدي أكثر من نفسي. أعرف إنهم سيسببون له التعاسة والأذى إذا تجرأت وقلت ما أشعر به. لهذا لقد أعطيته أنصاف الوعود. لكن إذا استطعت الهروب معي جاك، فنستطيع أن نأخذ والدي معنا ونعيش في مكان بعيد عن سلطة هؤلاء الأشرار المجرمون».

مجدداً ظهر الصراع على ملامح ماكوردو ومجدداً تصلب وجهه كالغرانيت.

«لن يلحق بك أي أذى لوتشيا ـ ولا بوالدك أيضاً. فيما يتعلق بالرجال الأشرار. فأتوقع إنك ستجدينني شريراً مثلهم قبل مرور وقت طويل».

«كلا، جاك، كلا! أنا أثق بك في أي وقت وأي مكان».

ضحك ماكوردو بمرارة.

«يا إلهي، لكم تعرفين القليل عني! روحك الطاهرة البريئة يا حبيبتي لن تخمن أبداً ما يوجد بداخلي. لكن، من هو هذا الزائر؟».

فتح الباب فجأة ودخل شاب بطريقة متسلطة سيدة، كان وسيم المنظر، بهي الطلعة، بنفس عمر وقامة ماكوردو. تحت قبعته السوداء الكبيرة،

والتي لم يزعج نفسه بخلعها. كان يظهر وجه جميل الملامح بعيون جادة واسعة وأنف حاد وكان ينظر بوحشية إلى الشخصين داخل غرفة الجلوس.

لوتشيا قفزت على قدميها فوراً وكلها ارتباك وخوف.

«تسرني رؤيتك سيد بالدوين» قالت: «لقد أتيت أبكر مما أتوقع، تفضل بالجلوس».

ظل بالدوين مكانه ويديه على خصره محدقا بماكوردو.

«من هذا؟» سأل بالدوين.

«إنه صديق لي. سيد بالدوين ـ نزيل جديد هنا. سيد ماكورود أقدم لك السيد بالدوين!».

طأطأ الشابان رأسيهما بطريقة واثقة لبعضهما البعض.

«لربما قد أخبرتك الآنسة لوتشيا عن حقيقة الوضع بيننا؟» قال بالدوين.

«لم أفهم أن هناك أية علاقة بينكما».

«حقاً؟ لا بأس. تستطيع أن تفهم ذلك الآن. تستطيع أن تأخذ ذلك مني الآن هذه الفتاة لي، وستجد الطقس مناسباً جداً لنزهة في الخارج».

«شكراً لك، لا مزاج لي بالخروج».

«حقاً؟» التمعت عيون الرجل بوحشية: «لربما لك مزاج بالقتال، سيد نزيل؟».

«هذا صحيح» صاح ماكوردو ونهض فوراً: «لم تتفوه بأية كلمة مرحب بها أكثر من هذه».

«بحق الله جاك! آه بحق الله!» صاحت المسكينة لوتشيا: «آه، جاك! جاك! سيؤذيك».

«آه، إنه «جاك» إذن إيه؟» قال بالدوين بغضب: «لقد وصلت إلى هذه المرحلة معه إيه؟».

«آه، طوم، كن متعقلاً ـ كن لطيفاً! من أجلي طوم، إذا كنت تحبني فعلاً كن طيب القلب ومتسامحاً».

«أظن، لوتشيا إنه من الأفضل أن تغادري هذا المكان حتى نسوي نحن هذا الأمر بيننا» قال ماكوردو بهدوء: «أو لربما، سيد بالدوين، ستخرج إلى الباحة الخلفية معي، إنها أمسية رائعة، والباحة هناك مناسبة».

«سأنتهي منك دون داعي لتوسيخ يداي بك» قال عدوه: «ستتمنى لو انك لم تطأ هذا المكان حتى قبل أن أنتهي منك».

«ولا أي وقت مناسب أكثر من الآن» صاح ماكورود.

«أنا من سيختار الوقت يا سيد، تستطيع ترك مسألة الوقت لي. أنظر هذا».

فجأة رفع بالدوين كم ذراعه الأيسر وأظهر إشارة غريبة عليه. كان مثلثاً داخل دائرة: «أتعرف ماذا يعني هذا؟»

«لا أعرف ولا أكترث لذلك».

«حسناً، ستعرف، أعدك بذلك، لن تكبر لتعرف ذلك أيضاً، لربما بإمكان الآنسة لوتشيا إطلاعك على ما يعني ذلك. أما فيما يتعلق بك لوتشيا فستأتين إلي راكعة على ركبتيك. أتسمعين هذا يا فتاة؟ على ركبتيك! وعندها سأخبرك ما سيكون عقابك، لقد نضجت ـ وأقسم بالله إنني سأجعلك تُقطفين!» حدق بهما بحنق ثم استدار وغادر المكان.

ظل الصمت مسيطراً على المكان للحظات. ثم اندفعت الفتاة وأحاطت ماكورود بذراعيها.

«آه، جاك، يا لك من شجاع! لكن هذا لا ينفع ـ يجب أن تهرب! هذه الليلة ـ جاك ـ هذه الليلة! هذا أملك الوحيد سيقتلك. لقد قرأت ذلك بعيونه الرهيبة. ما هي فرصتك بالنجاة أمام العشرات منهم. بالإضافة للريس ماكسيل وكل قوة الجمعية خلفه؟».

أمسك ماكوردو بيديها، قبلها ودفعها بلطف نحو المقعد.

«إجلسي يا حبيبتي، إجلسي! لا تخافي من أجلي، أنا نفسي من الأحرار. وقد أخبرت والدك بذلك. لربما أنا لست أفضل من الآخرين ولهذا لا تجعلين مني قديساً. لربما ستكرهينني أنا بدوري الآن وقد أخبرتك بهذا».

«أكرهك، جاك! طالما بداخلي روح لن أفعل ذلك أبداً. سمعت إن الجمعية مسالمة وخيرية بكل المناطق بعكس ما هي عليه هنا، ولهذا فلن أظن السوء بك مطلقاً. لكن ما دمت من الأحرار جاك، فلم لا تذهب لمقابلة الريس ماكس ومن الأفضل أن تتصاحب معه! آه، أسرع جاك، أسرع! وصل كلمتك له أنت أولاً وإلا فإن الكلاب ستتدافع خلفك».

«كنت أفكر بنفس الشيء» قال ماكوردو: «سأذهب على الفور وأسوي هذا الأمر. تستطيعين أن تخبري والدك إنني سأنام هنا الليلة وسأتدبر منذ الغد مكاناً آخراً للسكن».

صالون ماكسيل كان محتشداً بالناس كالعادة، لأن هذا المكان كان مركز التجمع لأقسى وأشرس رجال المنطقة. الرجل كان معروفاً ويخفي خلف قناعه الإجتماعي الطيب هذا كل أعماله البائسة. لكن بالإضافة لشعبيته وشهرته فالخوف منه ورهبته كانا يسيطران ليس فقط على كل سكان الوادي بل على ساكني الجبال المجاورة أيضاً.

ماكسيل كان المستشار الرسمي للعمدة وكان المسؤول عن إنشاء الطرق، مركز وصل إليه بواسطة أتباعه الذين أخذوا بعد ذلك يتوقعون على المساعدة الخاصة لهم ويحصلون عليها بالتالي. كان الإبتزاز والرشاوي والخوّة من الأمور المنتشرة جداً في هذا الوادي وكل صاحب محل أو متجر أو حتى منزل كان يدفع المبلغ المترتب عليه دون أي جدال وإلا فستعمل بذلك نهايته.

دفع ماكورود الباب المتأرجح ودخل الصالون العابق بالدخان وبالرجال. المكان كان مضاءاً بشكل جيد وكانت المرايا الكبيرة المعلقة على الجدران تزيد من هذا الضوء، كان هناك العديد من الساقين بمراويلهم البيضاء وأكمامهم المرفوعة والذين كانوا يحضّرون الشراب للزبائن المكتظة. على آخر البار كان هناك رجل ضخم الجسم يضع سيجاراً بين شفتيه ويتكيء بمرفقيه على البار، حاسة ماكوردو دلته أن هذا الرجل هو ماكسيل نفسه. كان الرجل بادي القوة والشراسة ولكن بنفس الوقت شعر ماكوردو أن قلب هذا الريس طيب رغم أن كلامه دون شك سيكون فظاً وقاسياً. وهكذا اقترب ماكوردو من مكانه بطريقته اللبقة الواثقة، لحظات وصار أمام ماكسيل والمجموعة المحيطة به كما يحيط السوار بالمعصم.

عيون ماكوردو الرمادية حدقت بشجاعة بعيون الآخر السوداء المخيفة.

«حسناً، أيها الشاب، لا أذكر إنني قد رأيت وجهك من قبل».

«أنا جديد هنا، سيد ماكسيل».

«لست جديداً كافياً حتى لا تعرف أن تنادي الرجل بلقبه الشائع».

«إنه المستشار ماكسيل، أيها الشاب» قال أحد الرجال من جانبه.

«آسف حضرة المستشار. أجهل طرق التعامل بهذا المكان. لكن أحدهم نصحني برؤيتك».

«حسناً، لقد رأيتني. هذا كل ما ستراه، ما رأيك بي؟».

«حسناً، إنها البداية. لكن إذا كان قلبك كبيراً بحجم جسدك وكانت روحك جميلة كملامح وجهك فأنا لن أطلب أكثر من ذلك».

«يا رجل، لك لسان إيرلندي داخل فمك». رد ماكسيل: «أنت جيد كفاية لتجاوز مظهري الخارجي؟».

«أجل» رد ماكوردو.

«ولقد طلب منك أن تراني؟».

«أجل».

«من طلب منك ذلك؟».

«الأخ سكانلان، رقم 341، فيرميسا. إشرب نخب صحتك حضرة المستشار. ولتعارفنا بشكل أفضل». رفع ماكوردو كأسه وجرعه دفعة واحدة.

ماكسيل الذي كان يراقبه بعيون متقلصة رفع حاجبيه السوداوين بتعجب.

«آه، الأمر كذلك إذن، إيه؟» قال: «يجب أن ألقي بنظرة قريبة عليك سيد ـ ».

«ماكوردو»

«نظرة قريبة أكثر، سيد ماكوردو، نحن لا نثق بالغرباء فوراً في هذه المقاطعة ولا نصدق كل ما يقال لنا أيضاً، تعال معي للحظة خلف البار».

كان هناك غرفة صغيرة خلف البراميل. دخلها ماكسيل والشاب وأغلق الرئيس الباب خلفهم بعناية ثم جلس على أحد المقاعد وأخذ يحدق بالشاب الغريب والصمت مخيم على المكان.

كان ماكوردو يقف ويده في جيبه والأخرى تلعب بطرف شاربه. فجأة نهض ماكوردو ورفع بوجه الشاب مسدساً ضخماً.

«ها نحن أيها المازح» قال الريس: «إذا وجدت إنك تلعب أي لعبة معي فستكون نهايتك وخيمة».

«هذا ترحيب غريب» أجاب ماكوردو بكبرياء: «من رئيس في جمعية الأحرار لأخ غريب من نفس الجمعية».

«آه، لكن عليك إثبات ذلك أولاً» قال ماكسيل: «وليساعدك الله إذا فشلت بذلك، أين كان موقعك؟».

«رقم 29، شيكاغو».
«متى؟».
«24حزيران، 1872».
«تحت إمرة أي ريّس؟».
«جيمس. هـ. سكوت».
«من هو حاكم مقاطعتك؟».
«برتيليميو ويلسون».
«هم! يبدو إنك نجحت بهذا الإختبار. ما الذي تفعله هنا؟».
«أعمل، كما تعمل أنت، لكن بوظيفة متواضعة».
«أجوبتك سريعة كفاية».
«أجل، أنا دوماً سريع بالحديث».
«هل أنت سريع بالعمل أيضاً؟».
«كانت لي هذه الشهرة بين أولئك الذين يعملون معي».
«حسناً، قد نجربك بأسرع مما تتوقع. هل سمعت أي شيء عن الجمعية بهذه المنطقة؟»
«سمعت إنها تعتبر الرجل كشقيق».
«هذا صحيح بالنسبة لك، سيد ماكوردو. لماذا تركت شيكاغو؟».
«سأشنق إذا أخبرتك بذلك».

توسعت عيون ماكسيل. لم يعتاد على أن يجيبه أحد بهذه الطريقة وقد استمتع بذلك.

«لماذا لن تخبرني بذلك؟».
«لأنه من غير المسموح لأخ أن يكذب على أخيه».
«إذن الحقيقة سيئة جداً لتقال؟».
«تستطيع وصف الوضع بهذه الكلمات إذا أحببت».
«إسمع هنا يا سيد، لا تتوقع مني، كريس، أن أسمح لرجل أجهل كل

ماضيه بدخول الجمعية».

ظهرت الحيرة على وجه ماكوردو. ثم تناول قطعة صحيفة من جيبه الداخلي.

«أنت لن تشي بأخ لك؟» سأل الشاب.

«كنت لأصفعك على وجهك إذا عدت وتفوهت بهكذا كلمات أمامي» صاح ماكسيل بحدة.

«أنت على حق حضرة المستشار» رد ماكوردو بلين: «يجب أن أعتذر منك، لقد تكلمت دون تفكير. لا بأس، أنا أعرف إنني بين أيادي أمينة. أنظر إلى هذه الورقة».

نظر ماكسيل إلى الخبر الذي يتحدث عن إطلاق نار على المدعو جوناس بينتو. في وسط ساحة السوق، في شيكاغو. بالأسبوع الأول من سنة 74.

«هذا عملك؟» سأل ماكسيل وهو يعيد الورقة إلى الشاب. طأطأ ماكوردو رأسه موافقاً.

«ولماذا أطلقت النار عليه وأرديته؟».

«كنت أساعد العم سام بجني الدولارات، لربما دولاراتي لم تكن ذهبية كدولاراته، لكنها كانت تبدو جيدة وكانت تصنع بأقل كلفة. هذا الرجل بينتو ساعدني لأسرب الدولارات داخل البلدان المجاورة. ثم قال إنه سيترك العمل معي ويعمل لحسابه الخاص. لربما كان قد بدأ يعمل لحسابه الخاص فعلاً. لكني لم أنتظر لمعرفة ذلك. أنا فقط قتلته ولجأت إلى بلاد الفحم هذه».

«ولماذا بلاد الفحم؟».

«لأني قرأت بالصحف أن ساكني هذه المناطق لم يكونوا من القديسين».

ضحك ماكسيل.

«كنت أولاً مزوراً للنقد، ثم مجرماً، ثم أتيت إلى هنا لاعتقادك إنك ستكون على الرحب والسعة؟».

«هذا هو الوضع تقريباً» أجاب ماكوردو.

«لا بأس، أعتقد إنك ستصل إلى البعيد. قل لي، هل لا يزال بإمكانك صنع الدولارات المزيفة؟».

تناول ماكوردو نصف دزينة من الدولارات من جيبه: «هذه لم تلفت أبداً انتباه شرطة واشنطون».

«أنت لا تقول!» قرب ماكسيل الدولارات من الضوء: «إنها مزيفة، أنا لا أرى أية فروقات بها! يا الله! أعتقد إنك ستكون أخاً قوياً ومساعداً كبيراً لنا. نستطيع التأقلم مع وجود رجل شرير أو رجلين بيننا، أخ ماكوردو، لأن هناك أوقاتاً علينا القيام بها بأدوارنا. سنصل فوراً إلى أمام الحائط المسدود إذا لم نقضي على أولئك الذين يضغطون علينا».

«لا بأس، أعتقد إنني سأقوم بنصيبي من القضاء مع بقية الشباب»

«يبدو أن عندك جرأة وشجاعة. أنت لم تحرك ساكناً أو حتى ترتعش حين رفعت بوجهك المسدس».

«ليس أنا من كان متعرضاً للخطر».

«بل من؟».

«أنت حضرة المستشار» تناول ماكوردو بلحظة مسدسه المحشو من جنبه: «كنت أحميك طوال الوقت. أعتقد أن طلقتي كانت ستكون سريعة بنفس سرعة طلقتك».

إحمر وجه ماكسيل من الغضب للحظة ثم انفجر بالضحك.

«يالله» قال: «نحن لم نحظى بشخص جريء وذكي مثلك منذ

سنوات، أراهن أن الجمعية كلها ستتعلم أن تكون فخورة بك. لا بأس ما الذي تريده جيم؟ ألا أستطيع التحدث مع الرجل هذا لخمس دقائق دون أن تقاطعني؟».

ظهر الإرتباك على وجه الساقي الذي كان قد فتح باب الغرفة.

«آسف حضرة المستشار. لكنه طوم بالدوين. يقول إنه يريد أن يراك بهذه اللحظة».

الرسالة لم تكن ضرورية لأن بالدوين نفسه حدق من فوق أكتاف الساقي بالزائر داخل الغرفة ثم دخلها وأغلق الباب خلفه.

«إذن» قال وهو يرمي ماكوردو بنظرة غاضبة: «لقد وصلت إلى هنا أنت أولاً، لا؟ عندي كلمة أريد أن قولها لك حضرة المستشار، كلمة تتعلق بهذا الرجل».

«إذن قلها هنا والآن، أمامي مباشرة» صاح ماكوردو.

«سأقولها حين أريد وبالمكان الذي أريد».

«صه، صه» قال ماكسيل وهو ينهض عن مقعده: «هذا لا ينفع. أمامنا أخ جديد بالدوين، وليس نحن من سيحييه بهذه الطريقة. مد له يدك يا رجل، وصافحه».

«أبداً» صاح بالدوين بغضب.

«لقد عرضت عليه المبارزة إذا كان يعتقد إنني قد أخطأت بحقه» قال ماكوردو: «سأقاتله باللكمات وإذا لا يرضيه هذا فسأقاتله بالطريقة التي يحددها هو. والآن. سأترك لك الحكم بيننا حضرة المستشار كما ينبغي بالريس أن يفعل».

«ما الأمر إذن؟».

«فتاة شابة يحق لها الإختيار بكل حرية شريك حياتها».

«حقاً؟» صاح بالدوين.

«كونكما شقيقين بنفس الجمعة فالفتاة لها كل الحق باختيار من تريد» قال الريس.

«آه، هذا هو حكمك، أليس كذلك؟»

«إنه كذلك طوم بالدوين» قال ماكسيل بنظرة شريرة: «هل ستعارضه؟».

«هل سترمي برجل وقف إلى جانبك منذ خمس سنوات سابقة لصالح رجل التقيت به فقط منذ خمس دقائق؟ أنت ليس ريساً بكل معنى الكلمة، جاك ماكسيل وأقسم بالله إنه حيث يحين وقت التصويت المقبل فـ ـ».

هجم الريس عليه كالنمر. وأطبقت يداه حول عنق الآخر ورماه على أحد البراميل المنتشرة داخل الغرفة. بغضبه المجنون هذا كان ليخنق بالدوين ويتركه جثة هامدة لولا أن تدخل ماكوردو.

«إهدأ حضرة المستشار! بحق الله إهدأ» صاح ماكوردو وهو يبعد الأسد عن ضحيته.

أفلت ماكسيل قبضته وبالدوين الشاحب أخذ يسعل بشدة ويستعيد أنفاسه التي كادت أن تنقطع ثم جلس على أحد البراميل قربه.

«كنت تسأل عن هذا منذ أيام، طوم بالدوين، الآن قد حصلت على ذلك» صاح ماكسويل وصدره الضخم يعلو ويهبط بشدة: «لربما خطر ببالك إنه إذا حان وقت التصويت فإنك ستكون من سيحل مكاني. الجمعية وحدها تقرر ذلك. لكن طالما أنا الريس فلن أسمح لأي رجل أن يرفع صوته علي أو أن يعارض أحكامي».

«لا شيء عندي ضدك» تمتم بالدوين بصوت مبحوح.

«لا بأس إذن» صاح الريس بنبرة مرحة: «لنشرب نخب انتهاء النزاع في

الجمعية. بعد ذلك كما تعلمان لن يكون هناك أي دم فاسد بيننا».

تناول كل منهم كأسه.

«إذن» قال ماكسيل: «هذه هي نهاية النزاع. ستنصاعان لنظام الجمعية من الآن فصاعداً وهذا أمر مفروغ منه كما يعرف الأخ بالدوين وكما ستعرف قريباً بدورك أخ ماكوردو فتجنب المشاكل.

«أقسم إنني بطيء جداً بالإقتراب منها» قال ماكوردو ومد يده لبالدوين: «أنا سريع بالغضب وسريع بالمسامحة. إنه دمي الإيرلندي الحار، كما يقولون لي. لكن الأمر انتهى بالنسبة لي، أنا لا أحمل أية ضغينة ضدك أخ بالدوين».

بالدوين اضطر لمصافحة اليد الممتدة نحوه لأن عيون الريس المرعبة كانت تحدق به. لكن وجهه المتصلب أظهر مدى استخفافه بكلمات الآخر الذي مد له يده.

طبطب ماكسيل على ظهريهما.

«جيد، جيد» قال: «يا للفتيات، الفتيات، حين أفكر أن هذا كان سيتسبب بعراك بين إثنين من أولادي، الفتاة وحدها التي ستقرر من تريد وليس الريس الحمدلله. ستنتقل إلى المركز رقم 341 أخ ماكوردو. عندنا أساليبنا الخاصة وطرقنا المختلفة عن شيكاغو. مساء السبت هو موعد لقائنا وإذا أتيت فسنجعلك حر فيرميسا فالي إلى الأبد».

الفصل الثالث

المركز رقم 341، فيرميسا

صباح اليوم التالي، نقل ماكوردو حاجياته من نزل آل شافتر وسكن في منزل الأرملة ماري في أطراف البلدة. سكانلان الذي قابله ماكوردو في القطار جاء يسكن معه. وكانت صاحبة المنزل عجوز طيبة كانت تؤمن لهم حاجياتهم وتتركهم طوال الوقت ولهذا كانا يتحدثان بحرية وسرية عن كل شؤونهم وأحوالهم. العجوز شافتر رحب بقدوم ماكوردو اليهم كل أسبوع للعشاء وأخذت العلاقة تتوطد أكثر وأكثر بين الشاب والفتاة الجميلة.

أخذ إسم ماكوردو يشتهر بين أفراد جمعيته لشجاعته وفصاحته وذكائه المتوقد ولأنه كان يقوم بطبع الدولارات المزيفة فقد كان عمله سرياً جداً وكان بعض أفراد الجمعية القلائل والأكثر ثقة وأمانة ينقلون هذه الدولارات وبكميات قليلة عبر الحدود إلى المناطق المجاورة.

حدثت إحدى الصدف التي زادت من شعبية ماكوردو بين «الرجال» أي أفراد العصابة، وجعلتهم ينظرون إليه باحترام ورهبة.

فقد دخل يوماً أحد رجال الشرطة ببذته الرسمية إلى الصالون وصمت الجميع للحظة ورماه العديد من الرجال بنظرات فضولية، لكن العلاقة بين

رجال الشرطة والمجرمين ذات خاصية مميزة في الولايات المتحدة وماكسيل نفسه الواقف خلف مكتب المحاسبة لم يظهر دهشته حين دخل الشرطي إلى صالونه.

«شراب مزدوج» قال الشرطي: «لا أعتقد إننا قد التقينا من قبل حضرة المستشار؟»

«أنت ستكون المفتش الجديد؟» سأل ماكسيل.

«هذا صحيح، نحن ننتظر منك، حضرة المستشار ومن كل المواطنين الجيدين أن يساعدوننا بالحفاظ على القانون والنظام في هذه البلدة. المفتش مارفن هو إسمي ـ من المركز الثالث».

«سنكون أحسن حالاً بدونك حضرة المفتش» قال ماكسيل ببرود: «لأن عندنا شرطتنا الخاصة هنا في البلدة ولسنا بحاجة لبضاعة مستوردة. أنت مجرد أداة يدفع لها من قبل العاصمة، يستأجرونك لتقتل أو لتخيف زملاؤك المواطنين المساكين».

«لا بأس، لا بأس، لن نتجادل حول هذا» قال الشرطي بمرح: «أتوقع أن يقوم كل منا بمهامه الخاصة وبالطريقة التي يراها مناسبة، لكن لن نرى جميعنا نفس الطريقة».

كان قد شرب كأسه واستدار ليغادر حين وقعت عينه على جاك ماكوردو.

«أهلاً، أهلاً» صاح الشرطي وهو ينقل بصره من أعلى الشاب إلى أسفله. «ها قد التقيت بمعارف قدامى».

إبتعد ماكوردو عنه.

«لم أكن صديقاً لك أبداً ولا لأي شرطي لعين آخر طوال حياتي». قال الشاب.

«المعرفة لا تعني دوماً معرفة الأصدقاء» قال الشرطي: «أنت جاك ماكوردو من شيكاغو، أليس كذلك؟ ولا تنكر ذلك» هز الشاب كتفيه.

«أنا لا أنكر ذلك» قال: «هل تعتقد إنني أخجل من إسمي؟».

«عندك سبب قوي لتكون كذلك على أي حال».

«ما الذي تقصده بهذا بحق الشيطان؟» هدد وتكورت قبضته.

«كلا، كلا، جاك! الحنق لن يفيد معي. كنت ضابطاً في شيكاغو قبل أن آتي إلى صخرة الفحم هذه وأعرف المحتال القادم من شيكاغو حالما تقع عيني عليه».

تصلب وجه ماكوردو وصاح: «لا تقل لي إنك مارفن من مركز شرطة شيكاغو؟».

«نفس الشخص يحييك الآن ويقف أمامك، لم تنس حادثة إطلاق النار على جوناس بنتو هناك».

«أنا لم أطلق النار عليه».

«حقاً؟ إنه برهان كافي ووافي، لا؟ لا بأس، موته قد أفادك وخلصك وإلا لكنت وقعت كمزيف للعملة أنت بنفسك. لكن والكلام بيني وبينك ـ لم يستطيعوا أن يثبتوا أي شيء ضدك وأبواب شيكاغو مشرعة لك».

«أنا مرتاح جداً حيث أنا».

«لا بأس، لقد أعطيتك خبراً وأنت شخص سيء كونك لم تشكرني على ذلك».

«لا بأس أعتقد أن نيتك طيبة، ولهذا أنا أشكرك» رد ماكوردو.

«يسعدني أن أراك تسير على الطريق القديم» قال الشرطي: «لكن إذا ابتعدت خطوة عن هذا الطريق فأنا أحذرك! الآن تصبح على خير ـ وتصبح على خير حضرة المستشار».

غادر الشرطي المكان لكن بعد أن ترك خلفه بطلاً. فقد تحلق الجميع حول ماكوردو الشاب الذي تأكدت أعماله البطولية بنظرهم في شيكاغو بطريقة رسمية.

مساء السبت قُدّم ماكوردو إلى بعض أعضاء الجمعية. أراد الشاب ألا يثير دخوله معهم أية ضجة لكن كان هناك تقاليد خاصة بالجمعية هنا أصر ماكسيل على تطبيقها. كان الإجتماع في أكبر قاعات يونيون هاوس كان الريس وبقية رؤوساء السكاورز الأقل شأناً يجلسون حول طاولة ضخمة. البقية ومعظمهم من الشباب الأصغر سناً كانوا يجلسون على طاولة بنفس الشكل مجاورة للأولى. كان من الممكن جداً التصور أن هؤلاء الرجال يشكلون عصابة شريرة وكان ذلك واضحاً بوجوه الرؤساء الشرسة وعيونهم المتوحشة القاسية التي تفتخر بطبيعة عملها وبخدمتها لأهداف ومصالح الجمعية دون الإكتراث لو سبب ذلك بقتل وتعذيب أشخاصاً لا ناقة لهم ولاجمل. أشخاص لم يسبق لمعظم أفراد هذه الجمعية أن رأوهم من قبل. كانت الجريمة تحصل، فيتجادلون حول هوية من قام بالعملية ويتندرون بسرد تفاصيل الحادث وصرخات المجني عليه وتوسلاته. في البداية كانوا يتسترون بهذه الأمور، لكن بالوقت الذي وصل ماكوردو إليهم كانت قوتهم قد تضاعفت وازدادت وصارت هذه الأخبار مجرد تسلية وتندر لهم، لأن فشل القانون بالقبض عليهم وعدم تجرأ أي شخص للشهادة ضدهم دفعهم للتعنت والمفاخرة بجمعيتهم وأعمالهم. الخطر الوحيد الذي كان يواجههم كان يكمن في ضحيتهم نفسها، لكنهم كان يفوقون ضحاياهم عدداً وعدة.

حُذّر ماكسيل من خطر سيواجهه لكنه لم يكن يعرف ما هو بالضبط كان يسير الآن مع اثنين من أبنائه نحو الغرفة الخارجية. مرة أو مرتين سمع إسمه يُذكر بين الرجال داخل غرفة الإجتماع فأدرك إنهم كانوا يتناقشون بأمر يتعلق به.

دخل أحد الحراس الداخليين المكان وكان بصحبته جاك ماكوردو المعصوب العينين والمغطى الرأس بكيس كبير من القماش، كانوا قد رفعوا له كم ذراعه الأيمن ومشى الحارس به ثم توقف.

سمع ماكوردو صوت ماكسيل نفسه البعيد والصارم.

«جاك ماكوردو» قال الصوت: «هل كنت فرداً من أفراد الرجال الأحرار فيما مضى؟».

إنحنى ماكوردو بموافقة.

«كنت تحمل رقم المركز 29، شيكاغو؟».

إنحنى مجدداً.

«الليالي المظلمة غير جيدة» قال الصوت.

«أجل، ليسافر الغرباء بها» رد الشاب.

«الغيوم كثيفة».

«أجل، العاصفة تقترب».

«هل المجلس راضي؟» سأل الريس.

تمتم الجميع موافقتهم.

«نعلم يا أخ ماكوردو بإشارتك وإجاباتك إنك فعلاً واحد منا».

قال ماكسيل: «نريدك أن تعرف على كل حال إننا بهذه المنطقة وبمناطق أخرى نملك طقوساً خاصة. وكذلك واجبات خاصة تقع على كاهل أفرادنا. هل أنت مستعد لنجري عليك الإختبار؟»

«أجل».

«هل قلبك صلب؟».

«أجل».

«تقدم خطوة إلى الأمام لتبرهن ذلك».

حالما انتهت الكلمات تقدم الشاب وشعر بوجود نقطتين صلبتين أمام

عينيه، وإنه إذا تابع التقدم فإن هاتين النقطتين ستشكلان خطراً على سلامة عينيه، لكنه لم يأبه وتابع تقدمه فتلاشى الضغط فوراً وسمع تمتمت الجمهور بالإستحسان

«إنه صاحب قلب صلب» رد الصوت: «هل تتحمل الألم؟».

«أجل».

«أختبره».

حافظ على كل أعصابه وقوته حتى لا يصرخ بعنف، فالألم المريع الذي شعر به على ذراعه جعله يعض على شفته بقوة ويصلب يديه حتى أقصى درجة حتى لا يصرخ متأوهاً.

«أستطيع تحمل ألماً يفوق هذا» قال ماكوردو.

هذه المرة الإستحسان والإعجاب كان أقوى. فلم يسبق لجمهور الجمعية أن شاهدوا عرضاً أجمل من هذا في هذا المركز. ربتت الأيادي الكثيرة على ظهره وانتزع أحدهم الغطاء عن رأسه. أخذ يرمش عيونه ويبتسم وسط تهنئات أخوانه له.

«كلمة أخيرة أخ ماكوردو» قال ماكوردو: «لقد أقسمت على الولاء والسرية وأصبحت تعرف عقاب من يحاول الإنشقاق والإرتداد والذي سيكون الموت الحتمي السريع».

«أجل».

«وعليك إطاعة أوامر الريس تحت كل الظروف».

«أجل».

«إذن بإسم المركز 341، فيرميسا أرحب بك كعضو به ويحق لك كل الإمتيازات الخاصة بنا وعليك كل الواجبات المطلوبة منا. ضع الشراب على الطاولة، أخ سكانلان، وسنشرب نخب شقيقنا الجديد».

أحضروا له معطفه ولكنه تفحص ذراعه التي كانت لا تزال تؤلمه بشدة فوجد على الذراع أثر الدمغة الحديدية الحمراء للمثلث المحصور داخل دائرة. إثنان من الشباب حوله رفعوا أكمامهما وأروه نفس العلامة على ذراعيهما.

«جميعنا عنده هذه العلامة» قال أحدهم: «لكن أحدنا لم يكن بمثل شجاعتك».

«صه! كان هذا كل شيء» قال لكن الألم كان لا يزال على حاله. بعد تناول الشراب بدأ العمل وأخفى ماكوردو دهشته وذهوله لما يدور حوله.

قال ماكسيل الريس: «العمل الأول في الروزنامة الأسبوعية هو قراءة هذه الرسالة المرسلة إلينا من قسم ميرتون كاونتي، المركز 249 برئاسة السيد ويندل. وهي تقول:

سيدي العزيز

هناك عمل لنقوم به فيما يتعلق بأندروز راي، مالك أحد مناجم الفحم قرب هذا المكان. تذكر إن مركزكم يدين لنا بخدمة سابقة، إلا وهي القضاء على إثنين من رجال الدورية في منطقتنا في الخريف السابق. إذا أُرسلت إلينا اثنين من رجالك الأشداء ليكونوا تحت أمرة هيغنز من هذا المركز، الذي تعرف عنوانه. هو سيطلعهم على مكان وطريقة تنفيذهما للأمر.

م أخوك بالحرية

جـ. و. ويندل. د. م. أ. ف

«ويندل لم يرد لنا أي طلب من قبل» تابع الريس: «حين احتجنا له ولهذا فنحن لن نرفض له طلبه الآن، من سيتطوع لهذه المهمة؟»

العديد من الشباب رفه يده. نظر الريس إليهم بعين الرضى وابتسام.

«أنت ستفي بالغرض كوماك. إذا قمت بالعمل كالمرة الأخيرة التي فعلت فأنت لن تخطأ. وأنت، ويلسون».

«لا أملك مسدساً» رد يلسون الذي كان مراهقاً صغيراً.

«إنه عملك الأول، لا؟ لا بأس، سيكون عليك التورط ببعض الأعمال الدموية بين الحين والآخر ستكون هذه بداية ضخمة لك. أما فيما يتعلق بالمسدس، فستجد مسدسك جاهزاً قبل رحيلك. إذا أتيت يوم الإثنين فهذا سيكون وقتاً كافياً لنا لنجهزه لك. ستحظى بترحيب حار حين تعود».

«هل هناك أي مكافئة هذه المرة؟» سأل كورماك.

«لا تأبه بشأن المكافئة. ستقوم بالأمر بشكل شرفي. لربما حين تنفذ الأمر فستجد بعض الدولارات أسفل الصندوق».

«ما الذي فعله الرجل المقصود؟» سأل ويلسون الصغير.

«بالطبع لا يحق لك بأن تسأل هذا السؤال. لقد صدر الحكم عليه هناك. هذا ليس من شأننا. كل ما علينا القيام به هو تلبية طلبهم، تماماً كما يفعلون هم لنا. وبما إننا فتحنا هذا الموضوع فأخبركم أن أخَين من مركز ميرتون سيأتيان ليقوما لنا بعمل خاص الأسبوع المقبل».

«من هما؟» سأل أحدهم.

«الإيمان، من الأفضل عدم طرح الأسئلة. إذا كنت لا تعرف شيئاً فلن تتمكن من الإعتراف بشيء ولن يحل بكم أية مشاكل. لكنهم رجال سيقومون بعمل نظيف حين يحلون عندنا».

«وبأي وقت أيضاً» صاح بالدوين: «الشعب يصبح متمرداً بهذه الأنحاء. الأسبوع الماضي فقط رفض بلايكر دفع الخوة لثلاثة من رجالنا، وسينال جزاؤه عاجلاً».

«ينال ماذا؟» سأل ماكوردو بهمس الشخص الجالس بجانبه.

«طلقة قاتلة تسكن قلبه» صاح زميله بضحك: «ما رأيك بطرقنا أيها الأخ؟».

روح ماكوردو المجرمة كما يبدو قد تشربت ما كان يدور حوله هو الذي أصبح الآن جزءاً منه.

«إستمتع بهذا كثيراً» قال: «إنه مكان مناسب لشاب من الحديد».

الكثير من الجالسين حوله سمعوا كلماته واعجبوا بها.

«ما الأمر؟» صاح أحد قادة السكاورز من آخر الطاولة.

«إنه أخونا الجديد، سيدي، الذي يجد أساليبنا تثير إعجابه».

وقف ماكوردو فوراً.

«أريد أن أقول سيدي الرئيس إنه إذا احتجتم لأي رجل للقيام بأي عمل فسيكون لي الشرف بالقيام به خدمة للمركز».

حازت كلمات ماكوردو على كل الإعجاب والتقدير. بدا وكأن شمساً جديدة كانت تشرق فوق الأفق. البعض الأكبر سناً بدا هذا التحسن سريعاً جداً.

«أرى» قال الرئيس هاورد المسن: «أن ينتظر الأخ ماكوردو فرصته المناسبة التي سيقدمها له المركز لاحقاً».

«بالطبع هذا ما قصدته بالضبط. أنا تحت أمركم في أية لحظة».

«سيأتي وقتك يا أخ» قال هاورد: «لقد رأينا إنك رجل ذو إرادة حديدية ونرى إنك ستقوم بعمل ممتاز في هذه الإنحناء. هناك مسألة صغيرة سنقوم بها هذه الليلة لربما ترغب بالمشاركة بها».

«سأنتظر وصول العمل المهم».

«تستطيع المجيء هذه الليلة على كل حال لتشاهد طرقنا بتنفيذ الأعمال. سأطلعكم على هذا الأمر لاحقاً. في هذه الأثناء ـ» نظر إلى

الأوراق أمامه: «عندي نقطة أو نقطتين أود طرحهما قبل انتهاء الإجتماع. أولاً أريد أن أسأل مسؤول الصندوق عن حجم السيولة الموجودة لدينا، هناك معاش أرملة جيم كارانواي. لقد قتل أثناء قيامه بالعمل للجمعية وعلينا تأمين معيشتها».

«لقد قتل جيم كارانواي أثناء قتل ويلكوكس من مارلي غريك» قال أحد زملاء ماكوردو.

«السيولة بحالة جيدة في هذا الوقت» قال أمين الصندوق: «الشركات كانت كريمة معنا. ماكس ليندر وشركاؤه دفع خمس مائة جنيه. والكر دفع مئة لكني أعدت له المبلغ وطالبته بخمس مائة. إذا لم أسمع منه بظرف أسبوع فسنشد له أذنه. كان علينا حرق مخابزه قبل أن يشتهر ويتطور. وشركة التعدين الخاصة قد دفعت المبلغ المحدد عليها بدورها. عندنا ما يكفي للقيام بكل ارتباطاتنا».

«هناك مسألة أريد أن أطرحها عليكم» قال الريس موريس صاحب الوجه الطيب والحواجب الكثيفة: «ألاحظ إننا نضغط بشدة على أصحاب الأعمال الصغيرة وهذا بالتالي دفع بالعديد منهم للمهاجرة وترك المكان وصارت الشركات الضخمة تستولي على الشركات الصغيرة للمهاجرين هؤلاء. والأمثلة على ذلك كثيرة. العمال المبتدئين يهابوننا وينصاعون لأوامرنا بعكس الشركات الكبرى التي تتمتع بالسلطة والقوة من نيويورك ذاتها وليس فقط من فيرميسا فالي ولهذا فأنا أرى أن نخفف الضغط على أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة هؤلاء وإلا فإن الشركات الكبرى ستتمكن من ملاحقتنا وستؤدي إلى هلاكنا إذا تعرضنا لها».

«وكيف سيتسببون بهلاكنا سيد متراجع؟» صاح ماكسيل: «هل بواسطة الشرطة؟ نصف الشرطة تقبض منا ومتواطئة معنا والنصف الآخر يخشانا ويهابنا. أم بواسطة المحكمة والقانون؟ ألم نجرب ذلك من قبل وما الذي

حل بنا من جراء ذلك؟ لا شيء».

«هناك قاضي يدعى لانس قد يقبل بهكذا قضية» قال الأخ موريس. صرخة غضب كبيرة قامت ضد كلام موريس.

«علي فقط أن أرفع إصبعي هذا» قال ماكسيل بحدة: «حتى يمتلأ المكان كله بألف رجل يحرقون المكان من أوله حتى نهايته» ثم فجأة ازدادت حدة صوت الريس وبرقت عيونه المرعبة: «إسمع، أخ موريس، عيني عليك منذ فترة. أنت لا تملك قلباً داخل صدرك وتحاول أن تخلع قلوب الباقين. سيكون يوم شؤم عليك، أخ موريس، حين يُدرج إسمك على اللائحة السوداء، وأعتقد إنه علي وضع إسمك هناك فعلاً».

شحب لون وجه موريس بشدة وارتعشت أقدامه فتهالك على كرسيه وارتشف جرعة من كأسه بيد مرتعشة قبل أن يتمكن من النطق.

«أعتذر حضرة الريس المبجل، منك ومن كل أخ بهذا المركز إذا كنت تفوهت بما يجب علي أن أتفوه به. أنا عضو مخلص ـ والجميع يعرف ذلك ـ وخوفي من أن يلحق أي أذى بالمركز هو دافعي لقول ما قلت. لكن عندي ثقة كبيرة بحكمك أكثر من مدى ثقتي بحكمي الشخصي، سيدي المبجل، أعدك إنني لن أعارضك مجدداً».

إنفرجت أسارير الريس لسماعه هذه الكلمات.

«جيد جداً، أخ موريس. كنت لأتأسف أنا بنفسي إذا اضطررت لتوجيه درساً لك مرة ثانية. لكن طالما أنا على هذا الكرسي فسنكون كلنا يد واحدة في هذا المركز والآن أيها الرجال ـ». تابع وهو ينظر حوله: «سأقول كم هذا إذا تابع الصحافي ستانغر هذا تهجمه علينا والغمز من قناتنا فإن نهايته ستكون على أيدينا مهما كانت النتائج. لكني أظن أن بإمكاننا توجيه تحذيراً قاسياً له أولاً. هل ستتدبر أمر ذلك أخ بالدوين؟».

«بكل سرور» قال بالدوين بحرارة.

«كم ستصطحب معك؟»

«نصف دزينة من الرجال واثنان ليحرسا الباب. ستأتي، جيمس وأنت باركر وأنت سكانلان وجيم وستون».

«وعدت الأخ الجديد بالذهاب أيضاً» قال الريس هاورد.

نظر طوم بالدوين إلى ماكوردو بعيون توضح كرهه وعدم مسامحته للأخير.

«لا بأس يستطيع المجيء إذا أراد» قال بصوت واثق: «هذا يكفي. كلما أسرعنا بالعمل كلما كان أفضل».

تابع الإجتماع بين صيحات الرجال وهتافاتهم والمجموعة المقررة غادرت المكان للقيام بمهمتها المحددة.

ساروا بالطريق المظلم ووصلوا إلى بناء «صحيفة الهيرالدا».

خاطب بالدوين ماكوردو قائلاً: «أنت أخ ماكوردو إبقَ هنا على الباب وحذرنا إذا قدم أحدهم وسيبقى الأخ جيم معك. الباقون إتبعوني».

صعد بقية الرجال إلى المبنى. لحظات وسمع صوت صراخ النجدة ثم تلاه صوت تكسير كراسي وعصي. بعد دقائق وصل رجل إلى أسفل المبنى وسقط قرب أقدام ماكوردو والحارس الآخر فيما كان الرجال يضربونه بعصيهم الغليظة. ضربات كانت تنهال على جسد الصحافي وتبلله بالدم. توقف الباقون عن الضرب لكن بالدوين تابع ضرباته التي كانت تتركز على رأس الرجل الذي تخضب شعره الرمادي ببقع الدم. ظل بالدوين ينهال بضرباته إلى أن أوقفه ماكوردو بنفسه.

«ستقتل الرجل» صاح ماكوردو: «توقف».

نظر بالدوين إليه بذهول.

«اللعنة عليك!» صاح بوحشية: «من أنت لتتدخل بهذا ـ أنت الجديد

بالمركز؟ تراجع» رفع عصاته مجداً لكن ماكوردو سحب مسدسه من جيبه.

«تراجع أنت بنفسك»صاح: «سأفجر رأسك إذا مددت يدك علي. فيما يتعلق بالمركز، ألم تكن أوامر الريس بألا نقتل الرجل وما الذي تفعله الآن سوى قتله؟».

«ما يقوله صحيحاً» علق أحد الرجال.

«يا إلهي، من الأفضل أن نتراجع جميعاً» صاح أحد الرجال: «النوافذ كلها تضاء وكل البلدة ستكون هنا بظرف دقائق».

تراجعوا جميعاً فعلاً والأصوات المتزايدة تسمع في كل مكان، عاد قسم منهم إلى مكان الإجتماع حيث أبلغوا الريس بإتمام العمل فيما عاد القسم الثاني وضمنهم ماكوردو إلى مساكنهم.

الفصل الرابع

وادي الرعب

حين استيقظ ماكوردو صباح اليوم التالي تذكر جيداً ما الذي حدث في اليوم السابق. فرأسه كان لا يزال يؤلمه من جراء الشراب وذراعه كان لا يزال يؤلمه بشدة أيضاً. تناول فطوراً متأخراً ثم أخذ يتصفح صحيفة» الهيرالدا» وقرأ تحت مقال: «تهجم وحشي على الهيرالدا» قرأ:

المسألة الآن بين يدي الشرطة، لكن لا يوجد أمل كبير بالتوصل إلى أية نتيجة كما هو الوضع دوماً. لقد تم التعرف على بعض الرجال وهناك أمل بإصدار بعض الأحكام ضدهم. سبب هذا الهجوم الوحشي، والذي لا داعي لذكره، ذلك التجمع المعروف الذي ترزخ البلاد تحته منذ سنوات والذي هاجمته الصحيف منذ أيام. أصدقاء السيد ستانغر لن يصمتوا عن هذا الأمر وقد سروا لسماعهم إنه رغم الأذية الكبيرة التي تعرض لها السيد ستانغر والجروح في كل أنحاء جسده ورأسه فإن حياته ليست بخطر.

في الأسفل كتب أن سرية من رجال الشرطة المدججين بالسلاح قد استدعوا لمساندة قوى الشرطة في البلدة. كان ماكوردو قد وضع الصحيفة جانباً وأخذ يشعل غليونه حين سمع صوت دقة على الباب عادت

بعدها صاحبة المنزل إليه بورقة سلمها لها بعض الأولاد. تقول الورقة المرسلة لماكوردو ـ.

أرغب بالتحدث إليك، لكني أفضل ألا يكون ذلك في منزلك. ستجدني قرب تلة ميللر. إذا ذهبت إلى هناك الآن فسأكون بانتظارك لإطلاعك على شيء بالغ الأهمية.

قرأ ماكوردو الرسالة لمرتين محاولاً معرفة هوية المرسل. لو كان الخط نسائياً لأدرك ذلك ولكانت إحدى المغامرات التي مرت به من قبل. لكن الخط كان لرجل، ولرجل مثقف أيضاً. في النهاية وبعد القليل من التردد قرر الذهاب إلى المكان المقصود.

تلة ميللر كانت حديقة عامة في وسط البلدة. في الصيف تشكل مكاناً رائعاً لتنزه السكان لكن في الشتاء تكون مهجورة وخالية. أعلى التلة كانت تطل على كل البلدة والوادي المحيط بها. مشى ماكوردو على الطريق داخل التلة ووصل إلى المطعم المهجور الذي يمثل مركز التسلية في الصيف. بجانبه كان هناك رجلاً يضع قبعة كبيرة على رأسه. حين أدار رأسه رأى ماكوردو وجه موريس المألوف. تبادلوا علامة المركز.

«لماذا لم تضع إسمك على الورقة؟».

«على الشخص أن يكون حذراً يا سيد، لا أحد يعرف ما الذي يحل به. الشخص لا يعرف بمن يثق وبمن لا يثق».

«بالطبع بإمكانك الوثوق بأخ لك في الجمعية؟».

«كلا، كلا، ليس دوماً» صاح موريس بشدة: «كل ما نقوله وحتى ما نفكر به يصل إلى مسامع ذلك الرجل ماكسيل».

«إسمع» قال ماكوردو بصلابة: «الليلة الماضية فقط تعهدت بالولاء والإخلاص للريس. هل ستطلب مني الحنث بقسمي هذا؟».

«إذا كان هذا تصورك» قال موريس بحزن: «فسأقول إنه يؤسفني استدعاؤك إلى هنا. تصل الأمور إلى طريق سيء حين لا يستطيع شخصين حرّين من تبادل الأفكار وما يجول بخاطرها».

ماكوردو الذي كان يراقب موريس بانتباه إسترخى لسماعه هذه الكلمات.

«بالطبع كنت أتحدث عن نفسي فقط» قال الشاب: «أنا جديد كما تعرف، وأنا أستغرب كل ما يحدث حولي. لست أنا من سيفتح فمه للتحدث أنا هنا للإستماع وهذا ما سأفعله».

«ولتنقله للريس ماكسيل» تابع موريس بمرارة.

«في الواقع هنا، أنت تظلمني» صاح ماكوردو: «عن نفسي أنا وفي للجمعية، ولهذا أقول لك مباشرة، إنني سأكون شخصاً بلا شرف إذا رددت لأي كائن آخر ما ستقوله إلي الآن ما دمت لا ترغب بأن يعرف أي كائن آخر بما ستقوله لي. لن يصل الأمر إلى غيري مع إنني أحذرك إنك قد لا تحظى لا بالمساعدة أو بالتعاطف».

«لقد توقفت عن البحث عن هاذين الشيئين منذ فترة طويلة» قال موريس: «قد أكون أضع روحي بين يديك بما سأقوله لك، لكن رغم سؤك ـ وقد بدوت لي البارحة إنك لا تقل سوأ عن الباقين ـ إلا إنك لا تزال جديداً على هذا وضميرك لن يكون ميتاً تماماً كما هي حال الباقين. لهذا فكرت بالتحدث إليك».

«لا بأس، ماذا عندك؟».

«إذا خنتني فالتحل اللعنة عليك».

«بالطبع لقد وعدتك بذلك».

«سأسألك إذن حين انضممت لجمعية الرجال الأحرار في شيكاغو وأقسمت على التعهد الذي سيصل بك إلى مجال الإجرام والقتل؟».

«إذا كنت تسميه إجراماً» أجاب ماكوردو.

«أسميه إجراماً» صاح موريس وصوته يرتعش من الحنق: «لقد رأيت القليل منه إذا كنت قد رأيت أي شيء بعد. أكان إجراماً البارحة، حين تعرض الرجل العجوز للضرب إلى أن غسلت الدماء جسده وهو رجل بعمر والدك؟ أكان هذا إجراماً ـ أو ماذا ستسميه؟».

«بعضهم سيقول أن هذه كانت حرباً» قال ماكوردو: «حرب بين طبقتين إجتماعيتين، يحاول كل طرف ضرب الآخر بكل قوته».

«لا بأس هل فكرت بشيء مثل هذا حين تعهدت بالخير في شيكاغو؟»

«لا بالحقيقة لا».

«ولا أنا كذلك حين انضممت لفرع الجمعية في فيلادلفيا. كانت مجرد جمعية لعمل الخير ونادي يجتمع فيه الأصحاب. ثم سمعت عن هذا المكان ـ اللعنة على الساعة التي سمعت بها بذلك ـ وأتيت إلى هنا لأحسن من وضعي. زوجتي وأطفالي الثلاثة حضروا معي. بدأت بافتتاح متجراً في وسط الساحة، وازدهرت أعمالي انتشرت الأخبار إنني من الأحرار ولهذا فقد أجبروني على الإلتحاق بهم. تماماً كما فعلت أنت في الليلة السابقة. لدي وصمة العار على ذراعي وشيء أسوأ وُصِمَ داخل قلبي. وجدت إنني كنت تحت إمرة رجل شيطان يده مبللة بالدم. ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ كل كلمة نطقت بها لأصلح ما فسد كانوا يعتبرونها خيانة، تماماً كما حدث ليلة البارحة. لا أستطيع الهروب، لأن كل ما أملكه بالعالم موجود داخل مخزني. إذا تركت التجمع، أعرف جيداً إن هذا يعني الحكم علي بالإعدام والله وحده يعرف ماذا يعني ذلك لزوجتي وأطفالي. آه، يا رجل، هذا مريع ـ مريع!» وضع يديه على وجهه وأخذ ينتحب بحرقة.

هز ماكوردو كتفيه.

«أنت رقيق جداً للقيام بهذه الأعمال» قال: «أنت من النوع الذي لا يناسب هذا النوع من العمل».

«أنا عندي الضمير والدين، لكنهم جعلوني مجرماً معهم. لقد اختاروني لهذا العمل. إذا انسحبت فأنا أعرف تماماً ما الذي سيحل بي. لربما أنا جبان. لربما هو التفكير الدائم بزوجتي المسكينة وأطفالي هو الذي يجعلني هكذا. ولربما هذا ما دفعني للموافقة رغماً عني على القيام بالمهمة الأولى التي انتدبوها لي. ذهبت، المنزل كان منعزلاً ويبعد حوالي عشرين ميلاً عن هنا. طلبوا مني الإنتظار وحراسة باب المدخل تماماً كما فعلت أنت البارحة. لم يثقوا بي لتنفيذ هذا العمل. الآخرون دخلوا المنزل. حين خرجوا أياديهم كانت مخضبة بالدم حتى الرسغ. حالما ابتعدنا سمعنا صوت طفل يصرخ خارجاً من المنزل. كان طفلاً في الخامسة قد شاهد والده وهو يُقتل. كاد أن يغمى علي من هول ما فعلوا لكن علي الظهور بمظهر اللامبالي لأني كنت أعرف إنه إذا لم أفعل فسيخرجوا من بيتي غداً كما خرجوا من منزل هذا الرجل المسكين اليوم وسيخرج طفلي كما يخرج هذا الطفل الآن. لكني كنت مجرماً ـ لمشاركتي الجزئية بارتكاب الجريمة، أنا ضائع في الدنيا وضائع في الآخرة. أنا رجل عنده الحس الديني الجيد لكن أحداً لن يستمع لي ويصدق إيماني ويسامحني على ما فعلت. أنا من السكاورز الآن. أحداً لن ينظر إلي إلا من هذا المنظار. وأنا أراك الآن تخطو الخطوة الأولى التي خطوتها أنا قبلك على طريق الفساد والشر والدم. وأنا أسألك ما هي النهاية؟ هل أنت مستعد لتكون قاتلاً بدم بارد أيضاً. أم أن بإمكاننا فعل شيء آخر لتغيير هذا؟».

«ماذا سنفعل؟» سأل ماكوردو باختصار: «لن تبلغ عنهم؟».

«لا سمح الله» صاح موريس: «بالطبع مجرد التفكير بالأمر سيكلفني حياتي».

«لا بأس إذن» قال ماكوردو: «أعتقد إنك رجل ضعيف تحمل المسألة أكثر مما تستحق».

«أكثر مما تستحق! إنتظر حتي يمضي على إقامتك هنا فترة أطول. أنظر إلى الوادي. أنظر إلى غمامة دخان المئة مدخنة الموجودة فيه، ستخبرك أن غمامة الجريمة الأكبر والأكثر كثافة ترزخ فوقه، فوق رؤوس ساكنيه. إنه وادي الرعب ـ وادي الموت. الرعب موجود داخل قلوب الناس من الفجر وحتى النجر. أنتظر، أيها الشاب وستدرك ذلك.

«لا بأس، سأطلعك على رأيي بذلك حين أرى المزيد» قال ماكوردو بعدم اكترات: «ما هو واضح تماماً هو إنك ليس الرجل المناسب لهذا العمل، وإنه كلما أسرعت بالبيع ـ مهما كان الثمن الذي ستبيع به ـ كلما كان أحسن لك. ما قلته بأمان معي، لكن الله! إذا كنت مُخبراً ـ»

«لا، لا» قاطعه موريس بصدق.

«لا بأس لنبق الأمور عند هذا الحد. سأحفظ ما قلته في عقلي ولربما سأعود إليه يوماً ما. أتوقع إنك قصدت الخير بإطلاعي على هذا. الآن سأعود إلى منزلي».

«كلمة واحدة قبل أن تغادر» قال موريس: «لربما قد شاهدنا أحدهم ونحن نتحدث سوياً الآن. وقد يطالبون بمعرفة الموضوع الذي كنا نناقشه».

«آه هذه فكرة حريصة جداً».

«لقد عرضت عليك العمل كمحاسب في مخزني».

«وأنا قد رفضت ذلك. هذا هو موضوعنا. حسناً، إلى اللقاء أخ موريس ولتسير الأمور بطريقة أفضل معك في المستقبل».

بنفس تلك الأمسية وفيما كان ماكوردو يدخن سيجارة قرب المدفأة في

منزله وهو غارق بالأفكار، فُتح الباب فجأة ودخل الريس ماكسيل بنفسه. رمى التحية بالخاصة بالجمعية ثم جلس قبالة الشاب وحدق به لبعض الوقت، رد ماكوردو بتحديقه بدوره بالريس.

«لست زائراً إجتماعياً ماكوردو» قال الريس أخيراً: «أظن إنني مشغول جداً لدرجة لا تمكنني من رد الزيارات للأشخاص الذين يزورونني. لكني أردت فعل ذلك والقدوم لزيارتك أنت بالذات هذا المساء».

«يشرفني حضورك حضرة المستشار» رد ماكوردو بحرارة: «هذا شرف لم أتوقعه».

«كيف هو ذراعك؟» سأل ماكسيل.

«لا بأس، أنا لم أنساه بعد، لكنه كان يستحق الألم» قال الشاب.

«أجل، إنه يستحق ذلك» أجاب الآخر: «لأولئك المخلصون الذين يحافظون على ولائهم ويساعدون الجمعية أهدافها. ما الذي كنت تتحدث بشأنه مع الأخ موريس هذا الصباح عند تلة ميللر؟»

جاء السؤال بشكل مفاجيء تماماً وكان من الجيد إنهما قد حضرا الجواب من قبل، إنفجر ماكوردو بالضحك.

«لم يعرف موريس أن بإمكاني كسب عيشي فيما أنا جالس هنا في البيت. ولا يجب أن يعرف ذلك، لأن لديه ضمير حي لأمثالي من الرجال. لكنه رجل طيب القلب. كان يظن إنني عاطل عن العمل وبحاجة له فعرض علي العمل عنده بالمخزن كمحاسب بأجر مناسب».

«آه، هذا كان الموضوع؟».

«أجل، هذا كان الموضوع».

«وأنت رفضت ذلك؟».

«بالطبع، ألا أستطيع كسب أربعة أضعاف ما سيدفعه لي وأنا هنا في غرفتي وبعمل يستغرق ساعتين فقط؟»

«هذا صحيح. لكني لن أختلط كثيراً مع موريس لو كنت مكانك».

«ولمَ لا؟».

«حسناً، أظن لأنني أقول لك هذا. هذا يكفي لمعظم الأشخاص في هذه الأنحاء».

«قد يكون هذا كافياً لمعظم الأشخاص في هذه الأنحاء، لكنه ليس كافياً لي، حضرة المستشار» قال ماكوردو بجرأة: «إذا كنت حَكَماً على الرجال فأنت ستعرف ذلك بالطبع».

العملاق المندهش حدق به وتصلبت أصابعه على الكأس الذي بين يديه كأنه كان على وشك ضرب رأس محدثه به. ثم ضحك بطريقته العالية المخيفة.

«أنت بطاقة غريبة بالطبع» قال: «لا بأس إذا أردت الأسباب. فسأطلعك عليها. ألم يقل لك موريس أي شيء ضد الجمعية؟».

«لا».

«ولا ضدي؟».

«لا».

«حسناً، هذا لأنه لم يجرؤ على الوثوق بك. لكن بأعماق قلبه هو ليس أخاً وفياً. نعرف ذلك تماماً. ولهذا نراقبه، وننتظر الوقت الذي نقضي به عليه. أعتقد أن الوقت يقترب. لا مكان لخروف ضعيف في قطيعنا. لكن إذا صادقت الرجل الغير وفي، فسنعتقد إنك بدورك غير وفي لنا، أفهمت؟».

«لا فرصة لي لمصادقته، لأني لا أحب ذلك الرجل ولا أعجب بأمثاله». أجاب ماكوردو: «أما بالنسبة لكوني غير وفي، فلو صدر هذا الكلام من أي رجل غيرك أنت لما تمكن من نطق كلمة واحدة أخرى في حياته».

«لا بأس، هذا يكفي» قال ماكسيل وهو يجرع ما تبقى داخل كأسه: «لقد أتيت لأعطيك هذه الكلمة وقد فعلت».

«أود أن أعرف» سأل ماكوردو: «كيف عرفت إنني قد قابلت موريس هذا الصباح».

ضحك ماكسيل.

«عملي هو معرفة كل ما يجري في هذه البلدة» قال: «أعتقد إنه من الأفضل أن تتذكر دوماً إنني أسمع كل ما يقال. حسناً، لقد انتهى الوقت وسوف أقول فقط ـ».

لكن جملته لم تنتهي لأن الباب فتح فجأة وبقوة وظهر على عتبته ثلاثة رجال شرطة عابسين. نهض ماكوردو فوراً وأوشك أن يسحب مسدسه لكنه رأى أن بندقيتين كانتا موجهتان نحو رأسه. دخل الغرفة الضابط المسؤول والذي كان النقيب مارفن نفسه.

هز النقيب رأسه وابتسم قليلاً وهو ينظر إلى ماكوردو.

«لقد اعتقدت إنك ستتورط بالمشاكل سيد ماكوردو اللعين من شيكاغو» قال: «لا تستطيع الإبتعاد عنها، لا؟ ضع قبعتك وتعال معنا».

«أعتقد إنك ستدفع ثمن هذا، نقيب مارفن» قال ماكسيل: «من أنت، أريد أن أعرف، حتى تخلع الأبواب المغلقة بهذه الطريقة وتعتقل الرجال الشرفاء المطيعين للقانون؟».

«لا تتدخل بهذه المسألة حضرة المستشار ماكسيل» قال النقيب: «نحن لسنا نعتقلك أنت، بل سنعتقل هذا الرجل ماكوردو. عليك مساعدتنا لا أن تقف بطريقنا بتأديتنا لواجبنا».

«إنه صديقي وقضيته قضيتي» قال الريس.

«بكل احترام، حضرة المستشار أقول لك أنه قد تكون لك قضيتك

الخاصة في يوم قريب ما» أجاب النقيب: «هذا الرجل ماكوردو كان فاسداً قبل مجيئه إلى هنا وهو لا يزال فاسداً. راقبوه ريثما أجرده من سلاحه».

«هاك مسدسي» قال ماكوردو ببرود: «لربما نقيب مارڤن لو إنني كنت وإياك وجهاً لوجه وبمفردنا لما تمكنت من اعتقالي بهذه السهولة».

«أين مذكرة التوقيف؟» سأل ماكسيل: «يا الله! هذه بلاد ديموقراطية حرة. إنه غضب عارم وستسمع المزيد عنه. أؤكد لك ذلك».

«قم بما تعتقده واجبك وسنقوم نحن بواجبنا حضرة المستشار».

«ما هي التهمة الموجهة إلي؟» سأل ماكوردو.

«إشتراكك بعملية الضرب التي تعرض إليها الناشر ستانغر في مكتب «الهيرالدا». ليس خطأك إنه ليس اتهاماً بارتكاب جريمة قتل».

«لا بأس إذا كان هذا كل ما تملكونه ضده» صاح ماكسيل بضحكة: «فستتوفرون على أنفسكم العناء إذا تركتم القضية منذ الآن. هذا الرجل كان معي في صالوني يلعب الورق حتى منتصف الليل، وعندي العشرات من الشهود ليؤكدوا ذلك».

«هذا هو شأنك، وأظن أن بإمكانك تدبير ذلك في المحكمة التي ستُعقد غداً. بهذه الأثناء، هيا، ماكوردو، وتقدم بهدوء إلا إذا أردت أن يخترق الرصاص رأسك. وأنت إبقَ مكانك سيد ماكسيل لأني لن أحتمل أي مقاومة لي أثناء تأديتي لواجبي».

كان النقيب مورغان مصمماً على كلماته وملامحه تعكس ذلك ولهذا فقد فعلا ماكسيل وماكوردو ما طلبه منهما. وتمكن الأول من الهمس ببعض الكلمات للسجين قبل أن يغادر الغرفة.

«ماذا عن ـ» سأل ماكسيل ورفع إصبعه إشارة لآلة تزييف العملة.

«لا تخف» همس ماكوردو الذي كان يخفيها بمكان آمن تحت أرض الغرفة.

«سأودعك الآن» قال الريس وهو يصافح الشاب: «سأرى المحامي بوند وسأهتم بقضية الدفاع عنك بنفسي. أعدك إنهم لن يحتجزونك لفترة طويلة».

«لن أراهن على ذلك لو كنت مكانك» رد نقيب الشرطة: «أحرسا السجين أيها العساكر وأطلقوا النار عليه فوراً إذا حاول القيام بأية ألاعيب. سأفتش المنزل قبل أن أغادر».

فعل مارڤن ذلك لكنه لم يجد أثراً للآلة الطابعة. حين نزل رافق ورجاله ماكوردو إلى المركز. الظلام كان قد حل وكانت الشوارع شبه مهجورة ولكن بعض المارة تبعوا الموكب وهم يشيرون إلى السجين.

«أقتلوا السكاورز اللعين» كانوا يصيحون: «أقتلوا السكاورز اللعين».

سُلّم السجين لرئيس المركز الذي أدخله الزنزانة حيث وجد بالدوين وثلاثة مجرمين آخرين من ليلة البارحة داخلها. لكن حتى هنا في عقر دار القانون كانت يد الأحرار واصلة. فقبيل منتصف الليل جاءهم أحد السجانين بصرة كانت تحتوي على زجاجة مشروب وكؤوس وورق لعب. قضوا بقية ليلتهم باللعب والشرب دون الإكتراث للمحكمة التي كانت بانتظارهم صباح اليوم التالي. المحكمة كانت مهزلة فعلاً، فالشهود ورجال الصحافة لم يستطيعوا تأكيد هوية المهاجمين لأن الظلام كان مسيطراً والإضاءة كانت ضعيفة وحتى ستانغر نفسه إعترف أن الهجوم حصل بغتة وبشكل مفاجيء جداً لدرجة إنه يذكر فقط أن من ضربه أولاً كان رجل بشارب كث. المحامي الذكي والذي وكّله ماكسيل بنفسه استطاع دحض كل تأكيدات الشهود وأيضاً تأكيد المستشار ماكسيل والعديد من رجال البلدة المعروفين أن المتهمين كانوا داخل قاعة اليونيون

هاوس يلعبون الورق جعل القاضي وهيئة المحكمة تفرج عن المتهمين بشبه اعتذار.

معظم الوجوه كانت مبتسمة وفرحة، وجوه يعرفها ماكوردو بعد أن رآها باجتماع الجمعية البارحة لكن وجوه بقية هيئة المحكمة كانت متصلبة وعابسة. وقد تفوه أحد أفراد هذه الهيئة بما كان داخل معظمهم حين تمتم والمتهمون يمرون من أمامه نحو الحرية.

«أيها القتلة، لم ننتهي منكم بعد».

الفصل الخامس

(أكثر الساعات ظُلمة)

لا شيء أكثر من اعتقال ماكوردو بذات اليوم الذي انضم به للجمعية كان سيزيد من شعبية الشاب بين أفراد هذه الجمعية الخاصة. فبالرغم من أن شهرته كانت قد عُرفت منذ اليوم الأول كونه رابط الجأش، قوي الشكيمة، غضنفر بتحمل الآلام. محدث لبق، ذكي وحاد الطباع. جميع الرؤوساء أدركوا إنهم أمام صنف نادر من القوة والبأس. «إنه الرجل المناسب للعمل النظيف» قالوا لبعضهم البعض. وادركوا إنهم سيسلمونه العمل الأول وليس الأعمال العادية الصغيرة التي يستطيع القيام بها أي فرد آخر من أفراد الجمعية. الآخرون أمثال بالدوين كرهوا صعود هذا الغريب السريع على سلالم النجاح وحسدوه، لكنهم أبقوا مشاعرهم هذه بداخلهم لأنه كان مستعداً للقتال بلحظة كاستعداده للإبتسام بلحظة.

لكن إذا كان قد ربح إعجاب وحب زملاؤه فهو قد خسر الكثير بالمقابل. شافتر العجوز أوضح له إنه لا يريده بعد الآن ومنعه من المجيء إلى المنزل لرؤية لوتشيا. لوتشيا كانت تحبه بعمق ولم تشأ

التخلي عنه بهذه السهولة. وبأحد الأيام وبعد ليلة طويلة من السهاد لتفكيرها بحبيبها الذي كان يغرق في بحيرة الإجرام والقسوة المتمثلة بالجمعية وكل ما يرتبط بها قررت لوتشيا الذهاب لرؤيته ـ ولربما للمرة الأخيرة ـ. هذا ما كان ماكوردو يرجوها أن تفعل دوماً. وهكذا ذهبت الفتاة إليه ودخلت إلى غرفته دون أن تصدر أي صوت. كان يجلس على المكتب وظهره للباب وكان يكتب رسالة ما. انتابها الشك والغيرة أكلت قلبها فهي كانت في التاسعة عشر فقط وغارقة في الحب فتخيلت إنه يكتب رسالة لإمرأة أخرى. مشت على رؤوس أصابعها ولامست كتفه برقة.

إذا كانت تريد أن تذهله، فقد فعلت بالطبع لكنها أصيبت بالذهول هي نفسها. فبلحظة استدار جاك كالنمر وأطبق بيده على حنجرتها وعيونه تبرق بشدة وبيده الأخرى مزق وضغط على الورقة التي كان يكتبها. للحظة حدق بذهول. ثم الدهشة والغبطة حلتا مكان الوحشية ولانت ملامحه ـ لكن وحشيته السابقة جعلتها تنذهل وتنكمش على نفسها برعب لم تشعر به من قبل في حياتها البريئة الهادئة.

«هذا أنت» قال بدهشة: «ولقد أتيت إلي يا حياة قلبي وروحي، فيما أنا كنت على وشك أن أخنقك! تعالي يا حبيبتي» مد لها ذراعيه: «دعيني أعوضك عن ذلك».

لكنها لم تكن قد استعادت وعيها بعد رؤيتها لنظره الخوف المذنب التي رأتها داخل عيونه. كل غرائزها الأنثوية دلتها أن ليس الخوف وحده هو ما جعله ينذهل. الذنب ـ هذا ما كان ـ الذنب والخوف.

«ما الذي حل بك، جاك؟» صاحت: «لماذا ارتعبت بشدة مني؟ آه جاك، لو كان ضميرك مرتاحاً لما كنت نظرت إلي بتلك الطريقة».

«بالطبع كنت أفكر بأشياء أخرى. وحين دخلت بخفة بتلك القدمين الجنيتين خاصتك ـ».

«لا، لا، كان الأمر أكثر من هذا جاك» ثم تملكها شك مفاجيء: «دعني أرى تلك الرسالة التي كنت تكتبها».

«آه، لوتشيا، لا أستطيع أن أفعل ذلك».

تأكدت شكوكها.

«إنها لامرأة أخرى» صاحت: «أعرف ذلك. وإلا فلماذا تخفيها عني؟ أكانت الرسالة لزوجتك؟ كيف لي أن أعرف إنك ليس متزوجاً ـ أنت، الغريب، الذي لا يعرف أحداً عنه شيئاً؟».

«لست متزوجاً، لوتشيا. إسمعي، أقسم لك بذلك. أنت الإمرأة الوحيدة في العالم لي. أقسم بالله، لوتشيا، أقسم بالله على ذلك!».

كانت العاطفة العميقة الصادقة تلون كلماته بوضوح فلم تستطيع إلا أن تصدقه.

«لا بأس، إذن» قالت: «لماذا لا تريد أن تريني الرسالة؟»

«سأقول لك يا حياتي» قال: «لقد أقسمت إنني لن أدع أي مخلوق يشاهد هذه الرسالة، وأنا لن أحنث بوعدي ولا حتى لك إنه سر. إنه عمل يتعلق بالجمعية وهو بالغ السرية. وقد خفت حين لامست يدك كتفي فهذا لإني اعتقدت إنها قد تكون يد محقق ما».

شعرت إنه كان يقول الحقيقة. أحاطها بذراعيه وقبّل بعيداً كل مخاوفها وشكوكها.

«إجلسي هنا بجانبي إذن، إنه عرش غريب لملكة مثلك لكنه أفضل ما بإمكان عاشقك المتيم أن يقدمه. سيصنع لك عرشاً أفضل قريباً أنا أسعى لذلك. والآن هل هدأ بالك الآن؟».

«كيف له أن يهدأ جاك، طالما أنا أعرف إنك مجرم ضمن المجرمين ـ حين أتوقع في أي لحظة أن تمثل للمحكمة لارتكابك لجريمة

ما؟ ماكوردو السكاورز ـ هذا ما دعاك به أحد جيراننا البارحة. لقد مزق هذا قلبي كالسكين».

«بالتأكيد الكلمات القاسية لا تكسر العظام».

«لكنها كانت كلمات صحيحة».

«لا بأس يا حياتي، ليس الأمر بالسوء الذي الذي تتصوريه. نحن مجرد رجال مساكين نقوم بأعمالنا بطرقنا الخاصة».

أحاطت لوتشيا ذراعيها حول رقبة حبيبها.

«آه، جاك تخلى عن كل هذا! من أجلي ـ من أجل الله، تخلى عن هذا! لقد أتيت فقط لأطلب منك ذلك. آه، جاك أرجوك أنا أتوسل لك أن تفعل، أركع على قدميك. أتوسلك أن تتخلى عن هذا».

رفعها وعانقها ممسداً شعرها ورأسها متكأ على صدره.

«أنت بالطبع يا حبيبتي لا تدركين ما الذي تطلبينه مني. كيف بإمكاني التخلي عن كل شيء فيما هذا يعني حنث الوعد الذي قطعته لزملائي والقسم الذي أقسمته لهم بالولاء؟ لو كنت تعرفين حقاً كيف هو الوضع وترينه من منظاري لما طلبت مني هذا مطلقاً. وأيضاً حتى لو رغبت أنا بالتخلي عنهم فهل تظنين إنهم سيتركوني أفعل هذا؟ أنت لا تظنين أن الرجال الأحرار سيتخلون عن واحد منهم بكل سهولة وموافقة بعد أن أتطلع على كل أسرارهم؟».

«لقد فكرت بذلك جاك. وقد خططت له لقد جمع والدي مبلغاً من المال، إنه كاره لهذا المكان، حيث الرعب يسكن قلوبنا جميعاً. إنه مستعد للرحيل. سنهرب سوياً إلى نيويورك أو إلى فيلادلفيا، حيث سنكون بمأمن منهم».

ضحك ماكوردو.

«للجمعية ذراع طويلة الباع. ألا تعتقدين إنها تمتد من هنا حتى

نيويورك أو حتى فيلادلفيا؟».

«حسن، إذن، إلى الغرب أو إلى إنكلترا أو إلى السويد حيث موطن والدي. أي مكان بعيداً عن وادي الرعب هذا».

فكر ماكوردو بالأخ موريس العجوز.

«بالطبع هذه هي المرة الثانية التي أسمع بها الوادي يلقب بوادي الرعب» قال: «يبدو الظل متمكناً من بعضكم فعلاً».

«إنه يحول كل لحظات حياتنا إلى ظلام دامس. هل تعتقد أن طوم بالدوين قد غفر لنا ولو للحظة؟ لولا إنه يخشاك، فماذا تعتقد أن فرصنا كانت لتكون؟ حين ترى النظرة بعيونه السوداء الجائعة حين ينظر إلي!».

«يا الله! سأعلمه الأدب إذا رأيته ينظر إليك بهذه الطريقة. لكن إسمعي أيتها الصغيرة. لا أستطيع أن أترك هذا المكان. لا أستطيع. إفهمي هذا مرة للأبد. لكن إذا تركتني أتدبر أمري بمفردي فأعدك إنني وبظرف سنة من الآن سأتدبر خروجنا بكل شرف وموافقة من قِبل الجميع».

«لا يوجد أي شرف بهكذا مسألة».

«حسناً، حسناً. هكذا تنظرين أنت للأمر. لكن إذا أعطيتني ستة أشهر فقط فسأتدبر أن أغادر المكان دون أن أشعر بالعار أو الحرج بالنظر مباشرة بوجوه الآخرين».

ضحكت الفتاة بغبطة.

«ستة أشهر» صاحت: «هل هذا وعد؟».

«حسناً، قد تكون سبعة أو ثمانية أشهر. لكن بعد سنة على أبعد تقدير سنترك هذا الوادي خلفنا».

كان هذا أقصى ما استطاعت لوتشيا الحصول عليه. لكنه كان شيئاً كافياً. رأت بصيص الأمل الذي سينور مستقبلهما. عادت إلى منزل

والدها والفرح يتراقص داخل قلبها.

أدرك ماكوردو بعد فترة قصيرة على انخراطه بالجمعية إنها لم تكن بالحجم الذي تصوره، بل إنها كانت تحتوي على المزيد والمزيد من الرؤساء والعناصر. رؤوساء حتى ماكسيل نفسه يخشاهم ويأتمر بإمرتهم مثل الريس الأول إيغانر تورنر الذي رآه ماكوردو مرة ولاحظ عليه ملامح الدهاء والشر. وقد أمر هذا الريس الأول من ماكسيل تأمين إقامة اثنين من أتباعه كانا يقومان بمهمة في فيرميسا وضواحيها. وكانت السرية التامة هي الشرط الأساسي لهذه المهمة. وهكذا فقط طلب ماكسيل من سكانلان وماكوردو تأمين سكن الغريبين عندهما لبعض الوقت. أحد الرجلين وكان يسمى لورنس كان كبير السن قوي البنية بمظهر يوحي كأنه من النساك والآخر فيليب كان صغير السن، مراهق، يبدو وكأنه آتٍ للنزهة وينوي الإستمتاع بكل لحظة من وقته. كانا صريحين بالتحدث عن المهمات السابقة التي قاما بها لصالح الجمعية. لورنس كان قد ارتكب 12 عملية اغتيال وفيليب ثلاثة كما أخبرا رفاقهما في المنزل بفخر وكبرياء كل أعضاء جمعية الإجرام هذه. لكنهما كانا متكتمان حول طبيعة مهمتهما الحالية.

«لكن اختارونا» قال لورنس: «لأننا لا نشرب الخمرة ولأننا لا نتفوه بأكثر مما يجب، لا تعتبرا هذا فظاظة، لكنها الأوامر التي علينا إطاعتها».

«طبعاً جميعنا بنفس الموقع» قال سكانلان والأربعة يجلسون حول طاولة الفطور.

«نستطيع التحدث قدر ما نشاء بعد انتهاء المهمة لكن قبل ذلك علينا الإحتفاظ بالسرية التامة».

«هناك بعض الأشخاص هنا الذين يستحقون القتل دون شك» قال ماكوردو بتصميم: «لا أظن إنكم تسعون وراء جاك كوبر من آيرونهل؟ أنا أتطلع بشوق لأراه بلا حراك».

«كلا، ليس هو المقصود».

«ولا هيرمان ستراوس؟».

«كلا، ليس هو أيضاً».

«لا بأس إذا لم ترغبا بإطلاعنا على الأسماء فنحن لن نرغمكما على ذلك، لكني سأسر لمعرفة ذلك».

إبتسم لورنس وهز رأسه. لم يكن ليُستدرج بالكلام. بالرغم من تكتم زائريها إلا أن سكانلان وماكوردو قررا مشاهدة ما أسموه المرح». ولهذا حين سمعهما ماكوردو يتسللان خارج المنزل في اليوم التالي. أيقظ سكانلان وبعد ارتداء ملابسهما تبعا الرجلين. الفجر لم يكن قد حان بعد وعلى ضوء مصباح الشارع إستطاع المطاردين رؤية الزائرين السائرين بطريقهما.

كان القمر قد بدأ يظهر ومعه أخذ عمال المناجم يتجهون نحو مناجمهم زرافات زرافات. ظل لورنس ورفيقه يمشيان باتجاه تلة قاين وماكوردو وسكانلان خلفهما إلى أن وصلوا إلى منجم فاير. كان أمامه حوالي مئة من العمال الذين كانوا يفركون أيديهم بسبب البرد الشديد وهم بانتظار رفع المهندس لعربات الدخول إلى المنجم وبالتالي لبدء يوم عملهم. وصل رئيس العمل وكان على وشك إعطاء الإشارة برفع العربات حين اقترب منه فيليب بسرعة.

«ما الأمر؟» سأل رئيس العمل: «ماذا هناك؟»

لم يتلق أي جواب بل أطلق عليه فيليب رصاصتين إخترقتا أمعاءه. أمسك الرجل مكان الجرح وكان يترنح حين أكمل لورنس عليه بإطلاقه الرصاصة على رأسه. الضباب كان يخيم والعمال المئة تجمدوا بمكانهم بذهول كأنهم موتى، وحده المهندس صاح بغضب وهرع نحو المجرمين إلا أنه سقط أمام أقدامهما مباشرة بطلقتين أصابتا قلبه. علا الصراخ بين

العـمال وأخـذوا يقـتربـون من القتلة لكن هؤلاء أفـرغـا مـا تبقى من رصاص فوق رؤوس العمال الذين هربوا بخوف مبتعدين وحين تابع أشجعهم التقدم كان المجرمان قد تلاشيا واختفيا بالضباب الكثيف الذي كان يحيط بالمكان ونجحا بترهيب الشركة هذه وبالتالي إجبارها على دفع الخوّة لهم. ماكوردو وصديقه اللذين كانا يراقبان ما حدث من تلة قريبة عادا أدراجهما بدورهما. سكانلان كان مرعوباً لأن هذه هي المرة الأولى التي شاهد بها جريمة حقيقية تنفذ أمام عينيه. جريمة تمت أمام مئة شاهد لكن أحـداً من هؤلاء الشهود لن يتعرف على القتلة بسبب الضباب أما ماكوردو فقد كان صامتاً وازدرى بداخله ضعف صديقه.

«إنها الحرب» قال: «الحرب بيننا وبينهم وعلينا توجيه الصفعات لهم كلما استطعنا».

أخيراً جاء اليوم الذي استدعى به الريس ماكسيل ماكوردو إلى نفس الغرفة الخلفية الصغيرة التي ألتقاه بها للمرة الأولى.

«إسمع الآن يا بني»، قال: «عندي المهمة التي تليق بك أخيراً. ستنفذ القيام بها بنفسك».

«أشعر بالفخر لسماعي هذا» أجاب ماكوردو.

«تستطيع اصطحاب رجلين معك - روبرت وجيمس. لقد أخبرناهم بهذا. لن تسير أمورنا بهذه المقاطعة إلا بعد القضاء على ألبرتو كوري. وستنال الشكر من كل فرد في الجمعية بأكملها إذا استطعت النيل منه».

«سأبذل جهدي، على كل حال، من هو، وأين سأجده؟»

أخذ ماكسيل يرسم خريطة على ورقة من دفتر ملاحظاته.

«إنه رئيس العمال في شركة دايك. إنه رجل صلب. كان رقيباً في الجيش سابقاً وجسده ممتليء بالندبات وكذلك صدره بالنياشين. حاولنا

لمرتين النيل منه، لكننا لم ننجح وجيم كارنواي قد خسر حياته بإحدى هاتين المحاولتين. الآن سنعهد لك أنت بهذه المهمة. هنا يقع المنزل، منعزلاً بمفرده على طريق دايك، تماماً كما تراه هنا على هذه الخريطة. هذا ليس جيداً رغم ذلك. فالرجل مسلح ويطلق بسرعة وإجادة في التصويب دون أن يطرح أي سؤال. لكن في الليل - لا بأس، هذا هو مع زوجته وأطفاله الثلاثة ومدبرة المنزل. لا تستطيع الأختيار. أما الجميع أو لا أحد. إذا تمكنت من وضع صندوق من البارود أمام الباب الرئيسي واشعلته - ».

«ما الذي فعله الرجل؟».

«ألم أقل لك إنه قد أردى جيم كارنواي؟»

«ولماذا أرداه؟».

«ما علاقة هذا بحق السماء بك؟ كارنواي كان قرب منزله تلك الليلة وقد أرداه الرجل. هذا يكفي لك ولي. يجب أن تقوم بما طُلب منك».

«هناك المرأتين والأطفال، هل نجهز عليهم أيضاً؟».

«يجب عليك أن تفعل وإلا فكيف ستقضي عليه؟».

«يبدو هذا غير عادل، فما هو الذنب الذي ارتكبوه هم؟».

«ما نوع هذا الكلام؟ هل تريد الإنسحاب؟»

«إهدأ حضرة المستشار، إهدأ، ما الذي سبق وقلته أو فعلته حتى تعتقد إنني أريد الإنسحاب وعدم الإستجابة لأمر يطلبه مني ريس مركزي؟ إذا كان القرار صحيحاً أم خاطئاً فأنت من يقرر ذلك».

«ستقوم بالعمل، إذن؟».

«بالطبع سأفعل».

«متى؟».

«أمهلني يوم أو اثنين حتى أرى المنزل وأرتب خططي. بعدها - ».

«جيد جداً» قال ماكسيل مصافحاً الشاب: «سأترك لك تحديد الوقت. سيكون يوماً عظيماً حين تنزف لنا الخبر السعيد. عملك سيكون الضربة القاضية والأخيرة التي ستجعلهم جميعاً يركعون تحت أقدامنا».

فكر ماكوردو ملياً وبعمق بالمهمة التي وصلت إليه فجأة. صباح اليوم التالي ذهب وعاين المنزل من جميع جهاته. وفي اليوم الذي تلاه قابل روبرت وجيمس واتفق معهما على الموعد. وهكذا في الليل التالي وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل إنطلق الثلاثة بأسلحتهم وبكيس من البارود نحو الهدف، كان الظلام حالكاً والرياح تعوي وتصفر. وصلوا إلى المكان بحذر وصمت والصق ماكوردو إذنه بباب المنزل الخلفي فلم يسمع أي صوت. وضع كيس البارود هناك بعد أن ترك خطاً منه يصل إلى مكان صديقيه. لحظات ثم أشعل الفتيل وركض هو والإثنان إلى خلف تلة قريبة ووصل إلى سمعهما صوت الإنفجار القوي وتساقط جدران المنزل وسقفه. عملهما قد نجح ولكن عرفوا بعد ذلك أن البرتو كوري قد حُذر من خطر داهم وإنه قد غادر وعائلته منزله في اليوم السابق فقط لتنفيذ العملية. وسكنوا في مكان أكثر أمناً حيث الحراسة مؤمنة عليهم ليلاً نهاراً.

«أتركوه لي» قال ماكوردو: «إنه لي، وسأنال منه حتى ولو انتظرته سنة كاملة».

تعالى الشكر والثقة بين كل أفراد الجمعية لسماعهم كلمات الشاب وهكذا لهذا الوقت انتهت هذه المسألة. وحين بعد عدة أسابيع تناقلت الصحف خبر قتل البرتو كوري من قبل رجل مجهول. كان هذا سراً معروفاً في الجمعية وأدرك الجميع أن ماكوردو قد نجح بمهمته.

هكذا كانت أساليب جمعية الرجال الأحرار، وهكذا كانت أعمال السكاورز التي زرعت الرعب في المقاطعة الغنية الواسعة.

لماذا أتابع سرد سلسلة الجرائم العديدة التي تلت، لقد أعطيتكم ما يكفي لتستدلوا على أساليب وطرق هذه الجمعية الدموية التي أطبقت نيرها حول رقاب كل سكان الوادي، نيرها المرعب الرهيب الذي خنق كل معارضة أو حتى مواجهة لأي فرد من أفرادها في أي وقت أو أي مكان. هكذا غمامة الرعب ظلت رازخة على الوادي ولم تكن أشد قتامة من صيف العام 1875.

الفصل السادس

الخطر

علا شأن ماكوردو بين أفراد الجمعية وأصبح نائباً للرئيس وأدرك الجميع إنه سيخلف ماكسيل بالرئاسة في يوم من الأيام، أصبح بالغ الأهمية لرفاقه وكانوا لا يتحركون إلا وفق مشورته ومساعدته. كلما ازداد شهرة داخل الجمعية، كلما ازداد حقد سكان الوادي عليه وكانوا ينعتونه بالألقاب كلما مر بالطريق. بالرغم من رعبهم فإن السكان كانوا يتكاتفون ضد الطغاة الحاكمين بيد من رعب وحديد. الشائعات كانت تقول أن اجتماعات سرية كانت تجري في مكتب «الهيرالدا» ويوزع خلالها السلاح على المجتمعين. لكن ماكسيل ورجاله لم يكترثوا لهذه التقارير. فهم كانوا الأكثر عدداً، الأقوى، والأكثر تسليحاً. مناوؤهم كانوا مبعثرين وبلا قوة. كل شيء سينتهي، كما حدث لعدة مرات في الماضي، بحديث بلا معنى أو حتى اعتقالات غير خطيرة. هذا ما قاله ماكسيل، ماكوردو وكل الأشداء داخل الجمعية.

كان يوم أحد في أيار. يوم السبت كان دوماً ليل الجمعة وماكوردو كان على وشك ترك منزله لحضور تلك الليلة، حين أتى موريس الأخ

الأضعف في الجمعية لرؤيته. جبينه كانت مغضنة من الهم ووجهه الطيب كان قاتماً.

«هل أستطيع التحدث معك بحرية، سيد ماكوردو؟»

«بالطبع».

«أنا لا أنسى إنني قد بحت لك بمكنونات قلبي مرة في السابق وإنك قد حفظت السر بيني وبينك فقط، مع إن الريس نفسه حضر إليك وسألك عن ذلك».

«ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير هذا وأنت قد وضعت ثقتك بي؟ لم يكن معنى ذلك إنني أوافق على ما قلت».

«أعرف ذلك جيداً. لكنك الوحيد الذي أستطيع التكلم معه دون أن أتعرض للخطر والموت. عندي سر هنا ـ» وضع يده على صدره: «وإنه يحرق حياتي ويقتلني ببطء. أتمنى لو أنه وصل لأي شخص آخر منكم غيري أنا. إذا قلته فذلك سيعني الجريمة، بالطبع، إذا بقيت صامتاً فذلك قد يعني نهايتنا جميعاً. فليساعدني الله، لكني أكاد أصاب بالجنون من جراء هذا».

نظر ماكوردو إلى الرجل بلهفة. كان يرتعش كلياً. صب له بعض الشراب وناوله الكأس.

«هذا العلاج لأمثالك» قال: «والآن أخبرني ما هو هذا السر؟»

جرع موريس الكأس وبدا بعض اللون على وجهه الشديد الشحوب.

«أستطيع إطلاعك عليه بجملة واحدة» قال: «هناك تحرياً يرصدنا» حدق ماكوردو به بذهول.

«ماذا يارجل، هل جننت!» صاح: «أليس المكان بأكمله يعج برجال الشرطة والتحريين وما هو السوء الذي سببوه لنا؟»

«كلا، كلا، إنه ليس رجلاً من هذه المقاطعة. كما تقول، نحن نعرفهم هنا، وهم لا يستطيعون أن يأذونا. لكن هل سمعت عن البيركسون؟».

«أظن إنني قرأت عن بعض الأشخاص بهذا الإسم».

«حسناً، تستطيع أن تأخذ ذلك مني، ليس أمامك أي عرض حين يكونون هم بأثرك. إنه ليس شأن حكومي عادي. إنه عمل دقيق ومميت يصل إلى نتائجه بصمت ثم ينال ممن يلاحقه إما بالصنارة أو بالفخ. إذا كان أحد رجال البيركسون متورطاً فعلاً بهذه القضية فسيُقبض علينا جميعاً».

«يجب أن نقتله».

«آه، إنها الفكرة الأولى التي خطرت ببالك! إذن فسيصل الأمر إلى الجمعية. ألم أقل لك أن السر سيؤدي إلى جريمة قتل؟»

«بالطبع، وما هي الجريمة؟ أليست هي عادية جداً بهذه المقاطعة؟»

«إنها كذلك فعلاً لكنه ليس عادياً لي أن أشير بنفسي للرجل الذي سيتم قتله. لن أستريح أبداً بعد ذلك. لكن رقابنا ذاتها هي التي على المحك. بحق الله ماذا يجب أن أفعل؟» قال العجوز وهو يكاد ينتحب.

كلماته كانت قد أثرت بماكوردو كثيراً. كان من السهل معرفة إنه كان يشارك الجميع رأيهم بأن الخطر المريع يحيق بهم جميعاً. فأمسك بكتفي موريس وهزه بشدة.

«إسمع يا رجل» صاح بحدة: «لن تكسب شيئاً بجلوسك ونحيبك هنا هكذا كالزوجة الثكلى. لنعرف الحقائق. من هو هذا الرجل؟ أين هو؟ كيف عرفت بأمره؟ لماذا أتيت إلي أنا بالذات؟».

«أتيت إليك لأنك الرجل الوحيد الذي سينصحني. أخبرتك إنه كان لي متجراً في الشرق قبل مجيئي إلى هنا. تركت أصدقاءاً جيدين خلفي،

وأحدهم يعمل في البريد والبرق، هاك الرسالة التي وصلتني منه البارحة، إنه هذا القسم من مقدمة الرسالة. تستطيع قراءته بنفسك».

هذا كان ما قرأه ماكوردو: ـ

«كيف حال السكاورز في منطقتك؟ نقرأ الكثير عنهم في الصحف. بيني وبينك لقد توقعت سماع المزيد من إخبارك منك أنت منذ زمن. خمس شركات ضخمة لخطوط سكة الحديد قد تحركت بلهفة بهذا الشأن. إنهم يقصدون ما يفعلون، وتستطيع أن تراهن إنهم سيصلون إلى هدفهم. لقد باشروا بالأمر بعمق. البيركسون قد استلموا القضية وفقاً لأوامر الشركات، وأفضل رجل في السلك، إدوارد بيرد يقوم بالعملية، ولهذا فهم سيقضون على تلك الجماعة بالتأكيد».

«والآن إقرأ نهاية الرسالة» قال العجوز لماكوردو.

«بالطبع، قل ما ذكرته لك قد عرفته أثناء عملي» «قرأ ماكوردو: «ولهذا فالأمر سري بيني وبينك».

جلس ماكوردو بصمت لبعض الوقت والرسالة بين يديه المتحركتين الضباب قد زال لحظة وباتت أمامه حافة الهاوية.

«هل يعرف أي شخص آخر حول هذا؟» سأل.

«لم أطلع أي شخص عليها سواك».

«لكن هذا الرجل ـ صديقك ـ هل عنده أشخاصاً آخرين قد يرغب بمراسلتهم؟».

«حسناً، أستطيع القول إنه يعرف واحداً أو اثنين آخرين».

«من جمعيتنا؟».

«أجل».

«كنت أسأل لأنه قد يكون قد أعطى وصفاً لهذا الرجل إدوارد بيرد في رسائله الأخرى وهكذا فستمكن من اقتفاء أثر هذا الأخير».

«هذا ممكن. لكني لا أظن إنه يعرفه. لقد أطلعني فقط على الأخبار التي عرفها أثناء عمله في مكتب البريد. كيف له أن يعرف رجل البيركسون* هذا؟».

ظهر الذهول على ماكوردو.

«يا الله» صاح: «لقد عرفته. كم كنت أحمقاً بعدم إدراكي لذلك من قبل. يا إلهي! إننا محظوظين! سنتدبر أمره قبل أن يتمكن من القيام بأي خطوة، إسمع موريس، هل ستترك كل هذا الأمر بين يدي؟».

«بالطبع، إذا حررتني منه بدورك».

«سأفعل ذلك. تستطيع التراجع ومراقبة ما يحدث فقط دون أن يكون لك أي علاقة بهذا، إسمك حتى لن يذكر. سآخذ على عاتقي كل شيء وكأن هذه الرسالة قد أرسلت لي أنا وليس لك، هل يرضيك هذا؟».

«هذا هو كل ما أطلب».

«إذن إبقِ الأمر عند هذا الحد ولا تفتح فمك بشيء. الآن سأذهب إلى الجمعية وسنجعل هذا البيركسون حدثاً من التاريخ».

«أنت لن تقتل هذا الرجل؟».

«كلما كان ما تعرفه قليلاً، أخ موريس، كلما كان ضميرك أكثر راحة وستتمكن من النوم، لا تطرح الأسئلة ودع الأمور تسوّي نفسها بنفسها. أنا من يمسك بزمام الأمور الآن».

هز موريس رأسه بحزن وغادر وهو يقول: «أشعر أن دماء الرجل على يداي».

«الدفاع عن النفس لا يُعَدُّ جريمة على كل حال» قال ماكوردو بابتسام:

* البيركسون: سرية استخبارات سرية للدولة.

«إما هو وإما نحن. أظن أن هذا الرجل سيقضي علينا جميعاً إذا تركنا على هواه بهذه الوادي. ويجب علينا. أخ موريس، أن ننتخبك كريس للجمعية لأنك أنقذتها فعلاً بما أطلعتني عليه».

بعد رحيل العجوز بدا التفكير العميق على ماكوردو وأدرك أن الخطر الذي يواجههم حقيقي ومصيري. الشركات كلها توحدت للقضاء على السكاورز واستخدموا لذلك منظمة حكومية بالغة الخطورة. أخذ ماكوردو يحرق ويتلف كل الصحف والدلائل التي قد تشير إليه قبل أن يغادر المكان، بعد ذلك أطلق تنهيدة ارتياح طويلة فقد شعر إنه صار بأمان، لكن الخطر كان لا يزال يضغط عليه لأنه قبل ذهابه إلى مركز الجمعية عرج على منزل شافتر. العجوز لم يكن بالمنزل، ولوتشيا نزلت إليه فوراً حين رأته من نافذتها.

لم ترَ على وجه حبيبها ذلك التلهف والشوق بل رأت الخطر.

«لقد حدث شيء ما» صاحت: «آه، جاك، أنت في خطر!».

«بالتأكيد الأمر ليس بهذا السوء يا حبيبتي. لكن قد يكون من الحكمة القيام بخطوتنا الأولى قبل أن يزداد الأمر خطورة».

«نقوم بخطوتنا؟».

«لقد وعدتك بالسابق إنني سأغادر هذا المكان يوما ما. أظن أن هذا اليوم قد حان. لقد وصلتني بعض الأخبار هذه الليلة ـ أخبار سيئة ـ وأرى المشاكل قادمة».

«الشرطة؟».

«البيركسون. لكن بالطبع، لن تعرفي ما معنى ذلك يا حياتي، ولا ما قد يعني ذلك لأمثالي. أنا متورط بعمق بهذه المسألة، وقد أضطر للهروب منها بسرعة. قلت إنك ستأتين معي إذا رحلت».

«آه، جاك، هذا سيعني إنقاذك».

«أنا رجل شـريف ببعض الأمور، لـوتشيا، لن أؤذي شعرة من رأسك الحبيب مقابل أي شيء في العـالم بأكلمـه. ولن أسحبك من عـرشـك الذهبي الذي أضعك به فوق السحاب مقابل كل كنوز العالم. هل تثقين بي؟».

وضعت يدها داخل يديه دون أي كلمة.

«حسن، إذن، إستمعي، جيداً لما سأقوله لك ونفذي ذلك بالحرف، لأن هذا هو السبيل الوحيد لنجاتنا. ستحدث الكثير من الأشياء في هـذا الوادي. أشعر بذلك داخلي. سيضطر الكثير منا للإهتمام بأنفسهم فقط. أنا واحد من أولئك وإذا اضطررت للذهاب بالليل أو بالنهار فأنت ستأتين معي».

«سألحق بك جاك».

«لا، لا، ستأتين معي. إذا أطبق هذا الـوادي علي ولم أعد أستـطيع العودة إليه. فكيف سأتركك خلفي، وقد اضطر للإختباء من الشرطة ولن أكون قادراً على إرسال حتى رسالة لك! يجب أن تأتي معي، أعرف إمرأة طيبة من المكان الذي أتيت منه. سأتركك عندها لحين نتمكن من الزواج. هل ستأتين؟».

«أجل جاك سآتي».

«فليباركك الله على ثقتك بي. سأكون حقيراً وملعوناً إذا خنت ثقتـك بي هذه، والآن انتبهي، لوتشيا سأرسـل لك بكلمـة واحدة وحين تصلك عليك ترك كل شيء والحضور إلى قاعة الإنتظار في المنزل وانتظار قدومي إليك».

«في الليل أو في النار، سآتي فور سماعي لكلمتك، جاك».

بعد ارتياحه قليلاً لتدبيره خـطة هروبـه ذهب ماكـوردو إلى الجمعية. أعطى الكلمات السر الكثير للعبور ووصل إلى قاعة الإجتمـاع حيث كان

كل الرؤساء والأعضاء موجودين. حيا الجميع ماكوردو ببهجة واحترام.

«نحـن مسروررون لوصولك أيها الأخ ماكوردو» قال هيرمان: «ونود أن نسألك مشورتك بقضية».

لم يجلس مـاكـوردو بـل جـذب انتبـاه الجميـع وصمتهم لمـلامحه المتصلبة الداكنة.

«حضرة الريس المبجل» قال: «أطلب قانون الطوارىء».

«الأخ ماكوردو يطالب بقانون الطوارىء» قال الريس ماكسيل: «ولهذا ووفقاً لقوانيـن الجمعية فسنناقش ما يريد مناقشته قبل أي قضية أخرى».

تناول ماكوردو الرسالة من جيبه.

«حضرة الريس المبجل، أيها الأخوة» قال: «أنا نذير أخبار الشؤم هذه الليلة لكن من حسن حظنا أن أمامنا الـوقت للمناقشـة والتداول بهـذه الأخبار قبل سقوط السيف القاطع فوق رؤوسنا والقضاء علينا. لقد وصلتني الأنباء أن أهم وأكبر وأخطر مؤسسـة حكومية بكل البـلاد هذه قـد أخذت على عاتقها مهمة القضاء علينا من جذورنا، وإنه بهذا الوقت يوجد تحري من البيركسون، إسمه إدوارد بيرد، في الوادي هذا وهو يجمع الـدلائل التي ستضع حبل المشنقة حول رقبة العديد منا والتي سترسل كل رجل موجود هنا إلى الزنزانة الأبدية. هذه هي المسألة التي أريد مناقشتها والتي طلبت لأجلها قانون الطوارىء».

ساد الصمت القاتل على الجميع. قطعه أحد المستشارين.
«ما هو دليلك على هذا أخ ماكوردو؟» سأل.

«إنها هذه الرسالة التي وصلت إلى يدي» قال ماكوردو وقرأ على مسامع الجميع محتواها: «أنا مرتبط بوعد شرف بعدم إعطاء أية إيضاحات أخرى حول هذه الرسالة، ولا أن أسلمها لكم، لكني أؤكد لكم إنها لا تحتوي

على أي معلومات أخرى مهمة للجمعية. أضع القضية بين أيديكم كما وصلت إلي».

«دعني أقول حضرة المستشار» قال أحد الرؤساء الأكبر سناً: «إنني قد سمعت عن إدوارد بيرد هذا، وإنه أفضل التحريين بالبيركسون كلها».

«هل يعرفه أحد؟» سأل ماكسيل.

«أجل» قال ماكوردو: «أنا أعرفه».

سمعت تمتمات الذهول بين الرجال.

«أظن إننا نملكه بين أيدينا» تابع ماكوردو بابتسام: «إذا تحركنا بهدوء وحكمة فنستطيع الإنتهاء من هذا بهدوء واختصار. إذا حظيت بثقتكم ومساعدتكم فلن نخشى أي شيء».

«ما الذي نخشى منه على كل حال؟ ما الذي بإمكانه معرفتنا حول شؤوننا؟».

«باستطاعتك قول هذا حضرة المستشار لو أن جميع من بداخل هذه القاعة كان قوياً وصلباً مثلك. هذا الرجل بيرد لديه كل أموال الولاية بين يديه. ألا تظن أن الأخوة الأضعف بجمعيتنا قد يبيعون أسرارنا مقابل المال ـ هذا إذا لم يكونوا قد فعلوا؟ سيصل إلى أسرارنا ـ وهناك طريقة واحدة لمنعه من ذلك». قال ماكوردو.

«ألا يغادر الوادي حياً». قال بالدوين.

طأطأ ماكوردو.

«جيد لك، أخ بالدوين» قال: «بيني وبينك الكثير من الإختلافات لكنك تفوهت بالكلمة الصحيحة هذه الليلة».

«أين هو إذن؟ كيف سنعرفه؟».

«حضرة الريس المبجل» قال ماكوردو بلهفة: «سأقول لك أن هذه

المسألة بالغة الخطورة ومصيرية بالنسبة لنا حتى نناقشها باجتماع مفتوح كهذا. أنا لا أشك بأحد من أخواني أبداً، لكن إذا مجرد كلمة واحدة وصلت إلى مسمع ذلك الرجل فسنخسر كل فرصة لنا بالقضاء عليه. أقترح على الجمعية اختيار مجموعة ثقة، حضرة المستشار ـ أنت بنفسك إذا كان لي الحق بالاختيار، والأخ بالدوين هنا، وخمس آخرون. حينها سأتحدث بحرية حول كل ما أعرف وكل ما أنصح به».

تبنت الجمعية هذا الإقتراح فوراً واختيرت المجموعة أو اللجنة الخاصة. والتي كانت تتكون من المستشار، بالدوين، السكرتير هاورد، كورماك النمر القاتل البارع، كارتر رئيس الصندوق، والأخوة ساندرز الشجعان والشديدي البطش.

إنفض الإجتماع العام بسرعة وعاد الرجال الأحرار إلى منازلهم وغمامة الخوف قد رزحت فوقهم أخيراً وشعروا بالرعب من إطباق فخ القانون عليهم.

«والآن ماكوردو» قال ماكسيل بعد بقاء اللجنة وحدها داخل القاعة.

«لقد قلت إنني أعرف من هو إدوارد بيرد» شرح ماكوردو: «لا داعي لإخباركم إنه لا يتواجد في الوادي بهذا الإسم. إنه رجل جريء، هذا ما أراهن عليه، لكنه ليس أبلهاً أو متهوراً. إنه هنا تحت إسم ستيف ويلسون وهو يسكن بمنزل هوبسون».

«كيف تعرف هذا؟».

«لأنني تحدثت معه. لم أفكر بالأمر في ذلك الحين، وما كنت لأفكر بذلك مطلقاً لولا هذه الرسالة، لكني متأكد إنه رجلنا المقصود. قابلته مساء الأربعاء الماضي. قال إنه من الصحافة وإنه يريد أن يعرف ما يستطيعه حول السكاوورز وحول «موجة الغضب» كما سماها حتى يرسل بتقريره لصحيفة «نيويورك» التي يعمل لها. صدقته حينها وطرح عليَّ كل

أنواع الأسئلة الممكنة مدعياً بأن المعلومات سترسل إلى صحيفته، تعرفون إنني ما كنت لأتفوه بأي كلمة خاطئة أو زائدة.

«سأدفع لك، وسأدفع مبلغاً جيداً جداً» قال حينها: «إذا عرفت بعض الأشياء التي تحوز على رضى الناشر». قلت ما اعتقدت إنه يُسر بسماعه، وأعطاني هو عشرون دولاراً مقابل معلوماتي.

«سأعطيك عشرة أضعاف هذا المبلغ» قال: «إذا أتيت لي بالمعلومات التي أريد».

سأل ماكسيل: «ما الذي أخبرته به حينها؟»

«كل الأشياء المركبة التي استطعت تأليفها له».

«كيف تعرف إنه لم يكن صحافياً فعلاً؟».

«سأقول لكم. غادر المكان وهكذا فعلت أنا. وصدف إنني مررت بجانب مكتب البريد ووجدته يخرج منه». دخلت المكتب بعد خروجه وقال لي الموظف الكلام التالي.

«إسمع، أعتقد أن علينا طلب رسوم مضاعفة من الرجل الذي خرج للتو» «عليك أن تفعل» قلت أنا له بعد أن رأيت البرقية الطويلة جداً والمكتوبة بالشيفرة التي كان الصحافي المدعو يريد إرسالها.

«إنه يرسل صحيفة مثل هذه كل يوم» تابع الموظف.

«أجل» قلت أنا له: «إنها أخبار خاصة لصحيفته، وهو يرسلها حتى يطبعها الآخرون في الصحيفة».

«هذا كان ما اعتقده الموظف حينها وما اعتقدته أنا بدوري أيضاً. لكن الآن الوضع يختلف».

«يا الله، أعتقد إنك على حق» قال ماكسيل: «لكن ما الذي تنصح بأن نفعله الآن؟»».

«لم لا نذهب الآن مباشرة ونقضي عليه؟» إقترح أحدهم.

«أجل كلما كان أسرع كلما كان أفضل».

«كنت لأباشر هذا العمل الآن فوراً لو إنني أعرف مكانه» قال ماكوردو: «إنه ينزل بمنزل هوبسون كما قلت، لكني لا أعرف المكان من الداخل عندي خطة، إذا استمعتم فقط لنصيحتي».

«حسناً تكلم!».

«سأذهب إلى ذلك النزل غداً صباحاً. سأجد مكانه عبر موظف الإستقبال. أعتقد إنه سيعرف مكان تواجده. حسن، بعد ذلك، سأقول له إنني من الأحرار. سأعرض عليه كل أسرار الجمعية مقابل تحديدي لسعر معين. أراهن إنه سيقع بهذا الشرك. سأقول له أن كل الأوراق موجودة في منزلي، وأن مجرد دخوله إلى منزلي سيكلفني حياتي. إذا ما شاهده أحدهم. هذا سيقنعه بصدق كلامي. سأطلب منه المجيء إلى منزلي في العاشرة ليلاً وحينها سأطلعه على كل شيء. هذا سيجلبه إلى الفخ بدون شك».

«لا بأس؟».

«تستطيعون تخطيط الباقي بأنفسكم. منزلي منعزلاً. صاحبة النزل صلبة كالحديد وصماء تقريباً. هناك فقط سكانلان وأنا داخل المنزل ـ إذا حصلت على وعده بالمجيء ـ وسأطلعكم على ذلك إذا وافق ـ فستحضرون جميعكم إلى منزلي في التاسعة مساءاً. سنطبق عليه. وإذا تمكن من النجاة ـ حسن، فسيتحدث عن حظ إدوارد بيرد طوال حياته».

«سيكون هناك نقصاً مهماً في البيركسون، لا؟» قال ماكسيل: «لندع الأمور عند هذا الحد ماكوردو. في التاسعة من مساء الغد سنكون عندك. أغلق الباب فقط خلفه واترك لنا الباقي».

الفصل السابع

شرك ايقاع بإدوارد بيرد

كما قال ماكوردو. المنزل الذي كان يسكن به كان منفرداً وبعيداً عن باقي المنازل وكان مناسباً جداً للخطة التي رسموها. كان من السهل جداً عليهم قتل الرجل في أية لحظة لكنهم أرادوا أن يعرفوا مدى ما توصل الرجل إليه من معلومات. من أين حصل عليها وما الذي أرسله لرؤسائه. لربما يكون الوقت قد فات وأن كل شيء صار بيد رؤوساء البيركسون في نيويورك، لكن حينها على الأقل سيتمكنون من الإنتقام من الرجل الذي فعل ذلك لكنهم أملوا أن لاشيء مهم قد تسرب بعد من الوادي وإلا لما كان التحري مضطراً لكتابة هكذا برقيات مطولة إلى نيويورك. على كل حال سيعرفون كل هذا من فم الرجل مباشرة. حالما يقع بقبضتهم فهم سيجدون وسيلة تجبره على الكلام. هذه ليست المرة الأولى التي يفعلون بها هذا.

ذهب ماكوردو إلى منزل هويسون حسب الإتفاق وقابل الصحافي المتظاهر.

عاد من مهمته بعد الظهر وعرج على ماكسيل في يونيون هاوس.

«سيأتي» قال ماكوردو.

«جيد» قال ماكسيل: «هل تعتقد إنه قد عرف الكثير؟».

نبرته كانت مرتعشة كأنه يخشى ذلك.

هز ماكوردو رأسه بغموض.

«لقد مضت فترة لا بأس بها على وجوده هنا ـ ستة أسابيع على الأقل. لا أظن إنه أتى إلى هذه المنطقة للتسلية ومعرفة الأمور البسيطة. إذا كان يعمل بيننا طوال هذه المدة، وكل مال الشركات خلف ظهره، فأتوقع إنه قد حصل على نتائج، وإنه قد أرسلها بدوره إلى نيويورك».

«لا يوجد رجل ضعيف في الجمعية» صاح ماكسيل: «كل رجل منهم صلب كالحديد وصادق. لكن، يا إلهي، هناك ذلك الخانع موريس. ماذا عنه؟ إذا خاننا أي رجل سيكون هو وحده. أفكر بإرسال اثنين من الرجال إليه ليضربوه بشدة هذا المساء وليعرفوا إن كان قد تفوه بأي شيء».

«لا بأس، لن يحدث أي سوء بفعل ذلك» أجاب ماكوردو: «أنا لن أنكر إنني أحب موريس قليلاً وسأحزن لإصابته بأي مكروه. لقد حدثني مرة أو مرتين بشؤون الجمعية، ومع إنه لا ينظر للأمور من منظارك أنت، لكنه لا يبدو من النوع الذي قد يخون. ولكن ليس أنا من سيقف بينه وبينك».

«سأتدبر أمر اللعين العجوز» قال ماكسيل بحدة: «أنا أضع عيني عليه منذ سنوات سابقة».

«حسن، أنت تعرف أكثر مني بهذه الأمور» أجاب ماكوردو: «لكن مهما كان ما تود القيام به فيجب أن تفعله في الغد وليس اليوم لأن علينا الهدوء حتى ننتهي من قضية بيركسون هذه. لا نريد أن نثير الشرطة بهذا اليوم من

بين كل الأيام».

«معك حق» قال ماكسيل: «وسنعرف من إدوارد بيرد نفسه من أين استقى معلوماته، لو اضطررنا لنزع قلبه أولاً. هل بدا إنه يشك بأنك تنصب له فخا؟».

ضحك ماكوردو.

«أظن إنني سيطرت عليه بنقطة ضعفه» قال: «إذا لاحت له الفرصة بمعرفة الأخبار المهمة حول السكاورز فهو سيصعد إلى الغيوم ليفعل ذلك. لقد أخذت ماله». أظهر ماكوردو بخبث الدولارات التي قبضتها. «وسأحصل على المزيد الكثير حين أريه الأوراق».

«إيه أوراق؟».

«لا بأس، لا يوجد أية أوراق. لكنني حشوت رأسه حول كتب وأوراق تتعلق بقوانين الجمعية وأساليبها وقضاياها. يتوقع الوصول إلى لب الموضوع الذي أتى به إلى هنا قبل مغادرته لغرفتي».

«بالطبع سيكون هناك» قال ماكسيل بابتسامة خبيثة: «ألم يسألك لماذا لم تحضر له الأوراق؟».

«فعل وقلت له كيف بإمكاني حمل كل تلك الأشياء. فيما أنا رجل مشكوك بأمره والنقيب مارفن الذي يلاحقني كان موجوداً في قاعة استقبال النزل حين وصلت؟».

«آه، أنت فعلاً عبقري» قال ماكسيل بإعجاب: «أظن أن مكافئة الإنتهاء من هذا العمل البالغ الأهمية ستعود إليك».

هز ماكوردو كتفيه.

«ليس هذا هو الأمر المهم لكن علينا القيام بالعملية بنجاح دون أن يعرف أحد إنه قد حدثت جريمة قتل من الأصل. لن يراه أي شخص يدخل

منزلي بحلول الظلام وسأعمل على ألا يشاهده أحد يغادره أيضاً. والآن إسمع حضرة المستشار، سأخبرك بخطتي، وسأطلب منك توزيع الأدوار على الآخرين، ستصلون جميعاً بالوقت المناسب. جيد جداً. هو سيصل في العاشرة. سيدق ثلاثة مرات على الباب وأنا سأفتح الباب له. ثم سأدور حوله وأغلق الباب. بعد ذلك يصبح الرجل لنا».

«هذا سهل وواضح».

«أجل، لكن الخطوة الثانية بحاجة لانتباه. إنه رجل صعب وصلب. إنه مسلح جداً. لقد خدعته أجل، لكنه لم يتخلى عن حرصه وانتباهه. إفترض إنه رآني أدخله إلى غرفة بها سبعة رجال فيما من المفترض أن أكون بالمنزل بمفردي؟ سيحصل إطلاق نار وسيصاب أحدنا دون شك».

«هذا صحيح».

«والضجة ستحضر كل شرطي لعين في المقاطعة».

«أظن إنك على حق».

«إليك ما يجب أن نفعل. ستنتظرون جميعكم في الغرفة الكبيرة - سأفتح الباب له وأقوده إلى غرفة الجلوس وأتركه هناك ريثما أحضر الأوراق. هذا سيعطيني الفرصة لأخبركم كيف تسير الأمور. ثم سأعود إليه ببعض الأوراق المزيفة. فيما هو يقرأها سأهجم عليه وأجرده من مسدسه. ستسمعون ندائي وستدخلون فوراً. الأسرع هو الأحسن لأنه بقوتي تقريباً وقد لا أتمكن من السيطرة عليه. لكني سأحاول أن أبقيه بلا حراك حتى تصلون».

«إنها خطة جيدة» قال ماكسيل: «ستدين لك الجمعية بأكملها لهذا. أظن إنه بعد ابتعادي عن الكرسي فسأوصي بإسم الرجل الذي سيخلفني عليه».

«أيها المستشار أنا مجرد تابع لك» قال ماكوردو لكن ملامحه عكست

تقديره لمدح الرئيس له.

عاد ماكوردو إلى منزله وتفحص الغرفة التي ستتم فيها العملية ونصح سكانلان بمغادرة المكان لأن الأخير يخشى رؤية الدم والتعذيب.

«لا بأس إذا لم يؤاخذني أحد لذلك فسأكون مسروراً أن أفعل» قال سكانلان.

وصل الرجال في الوقت المحدد وكانت عيونهم تبرق شراً ووجوههم الشرسة المتوحشة تتعطش لتنفيذ المهمة.

«سنحصل على الحقيقة منه» قال بالدوين بثقة.

«أجل سنحصل على الحقيقة منه لا خوف من هذا» قال ماكوردو.

كانت له أعصاب من الحديد هذا الرجل، فمع أن عبء المهمة بأكمله كان يقع على كاهله إلا أنه كان بارداً وهادئاً كعادته. لاحظ الآخرون هذا وزاد إعجابهم به.

«أنت من سيهتم بالرجل» قال ماكسيل: «لن يحصل على أي تحذير إلى أن تكون قبضتك حول عنقه. من المؤسف أنه لا يوجد إقفال لنوافذك».

أغلق ماكوردو الستائر جيداً.

«بالطبع لن يتمكن أحد من التجسس علينا الآن. تكاد الساعة أن تصل».

«لربما لن يأتي. لربما سيشم رائحة الخطر» قال السكرتير.

«سيأتي. لا تخشى من ذلك» رد ماكوردو: «إنه متلهف للقدوم بقدر تلهفك لرؤيته. أعتمد على ذلك».

جلسوا جميعاً كتماثيل الشمع. لحظات وسمعت دقات ثلاث على الباب.

«ولا أي صوت أو مجرد همسة» حذر ماكوردو قبل مغادرته للغرفة واتجاهه نحو الباب.

بآذان صاغية إنتظر القتلة. عدوا خطوات زميلهم على الممر في الخارج ثم سمعوه يفتح الباب الخارجي. كلمات ترحيب قليلة. صوت خطوات أخرى وصوت غير مألوف. بعد لحظة أُقفل الباب الخارجي بالمفتاح. فريستهم دخلت بأمان إلى الشرك. ضحك كورماك النمر برعب واطبق ماكسيل على فمه.

«أصمت وابق هادئاً أيها الأحمق» همس: «لم ننجح بالمهمة بعد».

سمعوا صوت مناقشة في الغرفة المجاورة. ثم فتح باب غرفتهم وظهر ماكوردو وإصبعه على فمه.

وصل إلى نهاية الطاولة ونظر إليهم. تغيير هائل كان قد حل به. أسلوبه كان كمن يقوم بعمل ضخم. وجهه كان صلباً كالغرانيت وعيونه تبرق بقوة خلف نظارتيه. أصبح قائداً واضحاً للرجال. حدقوا به بتلهف حار، لكنه لم ينطق بشيء. بنفس النظرة المحدقة نقل بصره من أحدهم للآخر.

«حسن» قال ماكسيل أخيراً: «هل هو هنا؟ هل إدوارد بيرد هنا؟»

«أجل» أجاب ماكوردو ببطء: «إدوارد بيرد هنا. أنا هو إدوارد بيرد».

ساد الصمت القاتل والذهول الكامل الغرفة بأكملها بعد هذه الكلمات سبع وجوه بيضاء كالموتى ظلت تحدق بهذا الرجل المسيطر بذعر هائل. هم فجأة، بصوت تبع تمزيق الستائر ظهرت عشرات البنادق عبر النوافذ الخالية من الزجاج. برؤيته لهذا انتفض الريس ماكسيل كالدب الجريح وهرع نحو باب الخروج. مسدس لامع واجهه هناك وكذلك عيون الرقيب مارفن الصلبتين. تراجع الريس وتهاوى على كرسيه.

«أنت بأمان أكثر هكذا حضرة المستشار» قال الرجل الذي كانوا يعرفونه

بإسم ماكوردو: «وأنت بالدوين إذا لم تبعد يدك عن مسدسك فستنقص عدد من سيشنق واحداً. إسحب يدك وإلا وحق من خلقني ـ أجل هذا أفضل. هناك أربعون رجلاً مسلحاً حول هذا المنزل وتصوروا بأنفسكم فرصتكم بالنجاة من كل هذا. جردهم من سلاحهم مارڤن».

لم يكن من مقاومة أبداً تحت تهديد ذلك الكم من البنادق. جُرِّد الرجال من أسلحتهم وهم خانعين. مذهولين ومصعوقين.

«أود أن أقول لكم كلمة أخيرة قبل أن نفترق» قال من أوقع بهم: «أظن إننا لن نلتقي ثانية إلا في المحكمة. سأعطيكم شيئاً تفكرون به حتى ذلك الحين. أنتم تعرفونني الآن على حقيقتي. أستطيع أخيراً أن أضع كل أوراقي على الطاولة. أنا إدوارد بيرد من البيركسون. لقد تم اختياري للقضاء على عصابتكم. كانت أمامي لعبة خطيرة وصعبة لأقوم بها. ولا أي مخلوق ولا أي شخص في المكان هذا كله عرف بها باستثناء النقيب مارڤن هنا ورؤسائي. لكن كل شيء قد انتهى اليوم والحمد الله، وأنا الرابح».

الوجوه السبع الشاحبة المتخشبة نظرت إليه. الكره الأعمى والحقد كان يقبع داخل عيونهم، قرأ التهديد الخطير.

«لربما تعتقدون أن اللعبة لم تنتهي بعد. لا بأس سآخذ فرصتي بذلك. على كل حال بعضكم لن يتمكن من القيام بأي شيء الليلة وهناك ستون آخرون منكم سيشرفون السجن في هذه الليلة أيضاً. أقول لكم هذا، حين عُهدت لي هذه المهمة لم أكن أصدق أن هناك جمعية مثلكم حقاً. كنت أظن أن كل ذلك كان مجرد كلام صحف، وإنني سأبرهن ذلك. قالوا لي أن الأمر يتعلق بالرجال الأحرار، فذهبت إلى شيكاغو وانضممت إليهم. حينها تأكدت أكثر من السابق أن الأمر مجرد كلام صحف، لأني لم أجد أي أذى أو سوء بالجمعية هناك، لكن كان علي

متابعة عملي وأتيت إلى وادي المناجم هذا. حين وصلت أدركت فوراً خطأي وأن الأمر ليس مجرد روايات صحفية. ولهذا فقد بقيت هنا لأعتني بذلك. لم يسبق لي وقتلت أي رجل في شيكاغو. لم أزيف دولاراً واحداً في حياتي كلها. التي أعطيتكم إياه كان حقيقياً كالعملة العادية، لكني لم أصرف المال بشيء أفضل من هذا أبداً. عرفت ما تحبونه فدخلت بينكم بوصفي ضد القانون وملاحق، وقد نجح كل شيء كما قدرت تماماً.

وهكذا فقد انضممت لجمعيتكم الرهيبة وشاركت بإعطاء النصائح. لربما قد يقولون ما يشاؤون، طالما إنني قد أوقعت بكم. لكن ما هي الحقيقة؟ في الليلة التي شاركت معكم بضرب العجوز ستانغر الصحافي. لم أستطع تحذيره، لضيق الوقت، لكني منعتك بالدوين، من قتله. إذا قد اقترحت عليكم بعض الأشياء حتى أحافظ على مكاني بينكم، فهذه كانت أشياء كنت أعرف إن بإمكاني منعها، حذرت ألبرتو كوري بنفسي وهكذا منزله كان فارغاً حين فجرناه. هناك جرائم عديدة لم أستطع منعها لكن إذا نظرتم إلى الماضي ولاحظتم عدم مرور الرجل المقصود بالقتل من الطريق المحدد، أو وجوده في منطقة ثانية حين تهرعون إليه لتقتلوه أو حين يبقى داخل المنزل فيما أنتم بانتظاره خارج المنزل فستعرفون أعمالي».

«أيها الخائن اللعين» همس ماكسيل عبر أسنانه المصطكة.

«آه، أجل، جون ماكسيل باستطاعتك نعتي بذلك إذا كان هذا يريح بالك. أنت وأمثالك كنتم أعداء الله والبشر في هذه الإنحاء. كان هناك طريقة واحدة لإيقافكم وقد قمت أنا بها. تدعونني.

تدعوني «خائناً»، لكني واثق أن آلافاً غيرك سيدعونني «مخلصاً». لقد جمعت وكتبت كل سر من أسراركم وأنجزت عملي على أكمل وجه هنا وحين تحين ساعتي سأموت وعقلي مرتاح تماماً للعمل الذي أنجزته

بهذا الوادي، والآن مارڤن لن أدعك تنتظر أكثر. إستلمهم وتابع عملك».

شيء قليل يقال بعد. لقد سبق لماكوردو إرسال ورقة مع سكانلان للآنسة لوتشيا ـ وبعد ساعات قليلة كانت الشابة الجميلة وحبيبها في طريقهما إلى شيكاغو حيث غادرا هذا الوادي إلى غير رجعة. تزوج إدوارد ولوتشيا بعد شهر في شيكاغو وكان شافتر العجوز هو شاهد زواجهما.

محاكمة السكاورز كانت كاملة وناجحة، ولم تنجح أية محاولات للجمعية بالدفاع وإظهار براءة المتهمين فكل التفاصيل لجرائمهم كانت موجودة وهكذا فقد شُنق ماكسيل مع ثمانية من كبار مساعديه وتعرض بقية الأفراد لأحكام مختلفة بالسجن وهكذا تحطمت جمعيتهم وتلاشت وتبخرت غمامة الرعب عن الوادي مرة وللأبد بفضل عمل رجل واحد يدعى أدوارد بيرد.

ولكن كما توقع لم تنتهي اللعبة عن هذا الحد، يد أخرى تابعت اللعب وأخرى وأخرى. طوم بالدوين مثلاً قد هرب من السجن وكذلك الأخوة رونالدز كذلك فعل العديد من أقسى واشرس رجال العصابة. لعشرة سنوات ظلوا داخل السجون ـ هربوا بعد ذلك وحينها أدرك أدوارد أن الخطر عاد إلى حياته. فجميعهم كان قد أقسم بدمائه أنه سينال منه ولو كان ذلك بآخر يوم في حياتهم. بعد محاولتين باءتا بالفشل لقتله ترك أدوارد شيكاغو تحت اسم مستعار وانتقل إلى كاليفورنيا وهناك انطفأ سراج نصف حياته حين توفيت لوتشيا. مرة ثانية كاد أن يقتل لكنه نجح بمغادرة كاليفورنيا تحت اسم دوغلاس المستعار ووصل إلى انكلترا. وهنا تزوج دوغلاس من إمرأة جميلة وعاش لخمس سنوات في انكلترا كرجل محترم ـ لكن الكلاب الشرسة كانت بأثره وانتهت حياة أحدهم بالطريقة التي قرأتموها سابقاً.

الخاتمة

هرب دوغلاس وزوجته من إنكلترا تحت جنح الظلام بعد أن أرسل أنطونيو للزوجة رسالة تحذير تقول: «اخرجيه من إنكلترا بأي ثمن هناك قوى هنا قد تكون أكثر خطورة من العصابة التي نجح حتى الآن بالفرار منها. لا يوجد أمان لزوجك في إنكلترا».

انتهت القضية عند هذا الحد بالنسبة لأنطونيو ولي ولم نعد نسمع شيئاً عنهما إلا لبعد شهرين حين وصلت لصديقي برقية مختصرة تقول:

«إلحقني يا سيد بونتي! إلحقني!»

أنا ضحكت بمرح لهذه البرقية الغريبة لكن صديقي بدا متجهماً وجاداً.

«عمل شرير يا كارلوس» علق وقطب جبينه.

«لاحقاً ذلك المساء أتي لزيارتنا السيد باركر، صديقنا من منزل آل دوغلاس. وجهه كان داكناً ومتصلباً.

«أحمل أخباراً سيئة ـ أخبار مريعة، سيد بونتي».

«أخشى أنني أعرفها» قال أنطونيو.

«لقد وصلتك البرقية؟».

«لقد وصلتني برقية من أحدهم أجل».

«إنه دوغلاس المسكين. يقولون لي إن اسمه هو إدوارد، لكنه سيكون دوماً جاك دوغلاس بالنسبة لي. أقول لكما أنهما قد رحلا نحو جنوب أفريقيا على متن باخرة «البلميرا» قبل ثلاثة أسابيع سابقة».

«أجل».

«الباخرة وصلت كاب تاون ليلة البارحة. وصلتني هذه البرقية من السيدة دوغلاس هذا الصباح ـ».

«لقد فقد جاك من على متن السفينة وسقط بالبحر قرب مرفأ هيلينا. لم يعرف أحد كيف حدث الحادث ـ

آيفي دوغلاس».

«آه! إذن فقد تم الأمر بهذه الطريقة، لا؟» قال أنطونيو بتفكير. «لا بأس، لا شك عندي أنهم قد نجحوا تماماً في تدبير ذلك».

«كلا مطلقاً».

«لقد قُتل؟».

«بالتأكيد».

«هذا ما أعتقده بدوري أيضاً. هؤلاء الكاوزر اللعينين، عش المجرمين هذا ـ».

«كلا، كلا، يا سيدي العزيز» قال أنطونيو: «هناك يد سيدة ومسيطرة هنا. ليس المسألة مسألة قتل بسيطة. تستطيع معرفة عمل السيد بطريقة تحريكه لريشته. أستطيع معرفة عمل مورتيمار حيث أرى هذا العمل. هذه الجريمة من لندن وليس من أمريكا».

«لكن ما هو الدافع؟».

«لأنها تمت من قبل رجل لا يقبل الفشل ـ رجل موقعه الفريد يعتمد على حقيقة أن كل ما يفعله يجب أن ينجح. عقل ضخم ومنظمة ضخمة

توحدت لقتل رجل واحد. إنها كسر البندقة بالمطرقة ـ مجرد إظهار للقوة الطاغية ـ لكن البندقة قد تكسرت وهذا هو المحزن بالأمر».

«وكيف حدث وتورط هذا الرجل بهذه المسألة؟».

«أستطيع فقط القول أن الكلمة الأولى التي وصلتنا بهذه القضية كانت عبر واحد من أتباعه، هؤلاء الأمريكان سريعوا التصرف، حين وجدوا حليفاً بريطانياً ليساعدهم سارعوا لتوصيته بإتمام العمل. منذ تلك اللحظة حكم بالاعدام على الرجل المقصود. فأولاً العقل العبقري هنا سيرضى بعرض قوته وجبروته. بعدها سيحدد كيف يتم تنفيذ العمل. في النهاية حين يقرأ بالصحف خبر فشل عملاؤه فسيتدخل بنفسه بلمسة سيدة. سمعتني احذر هذا الرجل من الخطر الأكبر المحدق به الآن أكثر من السابق. هل كنت على حق؟».

ضرب بيكر رأسه بيده بحدة من شدة غضبه وندمه.

«هل تقول لي أن علينا الاستسلام لهذا؟ هل تقول إن أحداً لا يمكنه مساواة والوقوف كالغريم الند لملك الشياطين هذا؟».

«كلا، أنا لا أقول هذا» قال أنطونيو وعيونه محدقة كأنه يستشف المستقبل: «لا أقول إنه لا يُهزم. لكن يجب أن تعطيني الوقت ـ يجب أن تعطيني الوقت».

جلسنا جميعاً بصمت لعدة دقائق فيما ظلت تلك العيون الحادة تحدق لتخرق الحجاب.

تمت

الفهرس

BEST SELLERS
أروع القصص البوليسية
POLICE ACTION STORIES



مقتبسة ومترجمة عن أروع الروايات من أساطير هيتشكوك في الرعب والتشويق وألغاز هولمز البوليسية. مدبلجة باللغة العربية، بلغة سليمة سهلة ومتقنة، تمت مراجعتها وتحريرها من قبل متخصصون في اللغة العربية، حيث أنهم شكّلوا فريقاً متجانساً، أخذ كل منهم على عاتقه عملية الترجمة والتنقيح والتحرير والتصحيح، في مراحل متعددة ليأتي العمل ثماره على أحسن صورة.

صـــدر منـهـا:

- وادي الرعب
- الأشباح العاشقة
- كنز آغرا المفقود
- الجرائم الخفية
- الجريمة الغامضة
- أشباح الماضي الغامضة
- لعنة باسكرڤيل
- شبح القصر العنيف

وهي متوفرة في جميع المكتبات

ISBN 9953-30-070-4
9 789953 300702

دار الراتب الجامعية Dar El Rateb
P. O. Box: 19-5229 • Telefax: 00961 1 853 993 – 853 89
E-mail: el-rateb@cyberia.net.lb